المختار من وفيات الأعيان

لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان

اعتنى به

د/ محمد فرمان الندوي

أستاذ التفسير والأدب العربي بكلية اللغة العربية وآدابها
بجامعة ندوة العلماء، لكناؤ

ملتزم الطبع والنشر

مؤسسة الصحافة والنشر

ندوة العلماء، لكناؤ، الهند

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ الموافق ٢٠١٩م

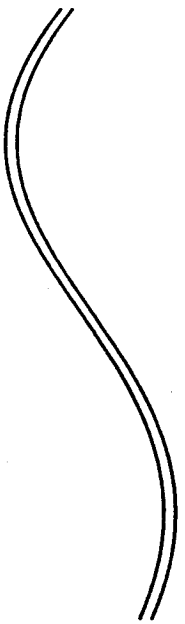

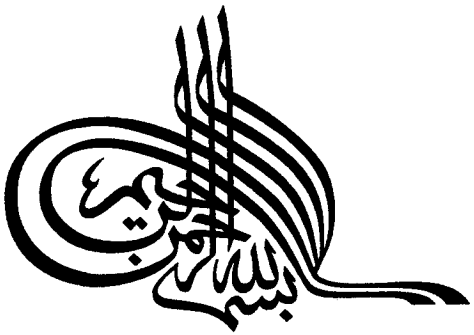
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

وفيات الأعيان

كما يراه الإمام الندوي رحمه الله تعالى

إن وصف شخصية أو ترجمة إنسان ليست من السهولة والعموم بالدرجة التي يتصورها كثير من الناس، فإن ذلك يحتاج إلى عدة مؤهلات:

أولاها: المعرفة الشخصية الواعية الناقدة، وإذا كانت عن طريق المعاشرة والصحبة، فهي من أفضل المؤهلات وأقواها، وإلا فعن طريق الدراسة الأمينة وتتبع الأخبار، وأن تقوم بينهما صلة من الصلات التي تحث على تتبع الأخبار والتعرف على الخصائص.

ويليها: الاقتدار على البيان والتعبير وتملك ثروة لغوية وكلمات مميزة فاصلة.

ثم يأتي دور الدقة والأمانة والشعور بالمسئولية، والقدرة على تفصيل اللباس على قامة المترجَم له والمعرَف به، فلا يكسوه لباساً سابغاً فضفاضاً يبدو فيه قزماً حقيراً، وينم هذا اللباس عن أنه لباس لغير هذا الإنسان ولقامة أطول من قامته، وللرجال قامات وقيم، وقد تكون الجناية على القيمة أشنع من الجناية على القامة.

ومهم كذلك أن يتوفر عند الكتابة في ترجمة حياة أو تعريف

بشخصية دافع نبيل ورغبة ملحة تنبع من القلب، من تجاوب مع فكرة أو استجابة لنداء الضمير أو دفاع عن كرامة مهضومة، وحق سليب أو رد لاعتبار أو وفاء بفضل أو إعجاب بجمال أو كمال، فإن الكتابة إذا تجردت عن هذه العوامل كلها كانت أشبه برسم خشيب جامد أو وشي وتطريز لمجرد الربح المادي والغرض التجاري، ويكون الكاتب أو الشاعر في ذلك كالمطرب المحترف أو النائحة المأجورة.

ويجب أن يعرف أن للكلمات درجةَ حرارة وبرودة (Temperature)، فلا توضع كلمة ذات حرارة متصاعدة مكان كلمة ذات حرارة منخفضة، فضلاً عن أن توضع كلمة ذات حرارة مكان كلمات ذات برودة، ولا يسخى بكلمة تعطي صورةً هائلةً من العظمة والكمال، أو النبوغ والذكاء، أو الخلق الحسن والسيرة المثالية، أو العلم الغزير والذكاء الألمعي لشخصية لا تستحق إلا كلمات فيها التوسط والاقتصاد، ثم يضعه في طبقته ويحدد اختصاصه وتميزه في فن من الفنون أو موضوع من الموضوعات.

المشكلة حين يكون المترجَم جامعاً بين أصناف العلم وضروب الكمال وأشتات الفضائل، كما كان الشأن مع العلماء الأقدمين بصفة عامة، فلا يقدر على تحديد اختصاصه إلا من اطلع على مؤلفاته جميعاً، واطلع على آراء معاصريه فيه وحكمهم عليه.

وبهذه الخصيصة امتاز العلامة شمس الدين أحمد بن خلكان (م ٦٨١) في كتاب وفيات الأعيان وأنبا وأبناء الزمان من

بين مؤلفي كتب التراجم والسير، فإنه إذا وصف أحداً من المترجم لهم بقوله: النحوي أو الفقيه أو الأديب أو المفسر أو اللغوي أوالواعظ فليس من الميسور زحزحته عن مكانه الرئيسي والاختصاصي، ووضعه في طبقة أخرى، وهذا قلما تيسر لمؤلفي كتب التراجم والسير، ولا يقدر عليه إلا صاحب سليقة في فن التراجم، ومن أعطاه الله الدقة في الحكم ورقة الشعور وحسن الذوق والاطلاع الواسع الدقيق[1].

أبو الحسن علي الحسني الندوي

ندوة العلماء، لكناؤ

---

[1] شخصيات وكتب: ٦-٧، دار القلم، دمشق ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

المقدمة

بقلم: سماحة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
(رئيس ندوة العلماء، لكناؤ)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين خاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين. وبعد:

فقد وضع الله تعالى في فطرة الإنسان أن يستفيد في أحوال حياته من أسوة من حوله من أصحاب السيرة من أسرته أو من البيئة التي ينشأ ويتربى فيها، وبذلك يكون الإنسان وفق ما حوله من الآخرين، فتنشأ السيرة بكل بيئة من بيئات الناس، فكما تكون البيئة تكون الناشئة فيها، وبذلك تصبح الشخصيات الممتازة في الأحوال والأعمال أسوةً لما حوله، ولذلك يسعى الناس أن تكون أمام الناشئين شخصيات ممتازة، ليتأسوا بما يجدونها حسنةً في هذه الشخصيات الممتازة، فيرتسم بها ويكون من الحسن أن يبرز المطلعون على تاريخ الرجال نخبةً لهذه الشخصيات الممتازة، لتكون الاستفادة للناشئين سهلةً وموافقةً لما يحسن اتباعهم لها، وتأسيهم بحسنات سيرتهم.

ومن هذا القبيل تجدون هذا الكتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الأربلي الشافعي (٦٠٨ – ٦٨١هـ)، الذي كان

قاضي القضاة، فاضلاً بارعاً، متفنناً، عارفاً بالمذهب، حسن الفتاوى، جيد القريحة، بصيراً بالعربية، علامةً في الأدب والشعر وأيام الناس، أما كتابه: وفيات الأعيان فقد اشتهر كثيراً، وهو من مراجع التاريخ وأحوال عظماء المسلمين، وأيضاً من مراجع الأدب العربي ومصادره، اختصره أولاً الشيخ بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبي (المتوفى سنة ٧٧٩هـ)، وسمّاه "معاني أهل البيان من وفيات ابن خلكان"، وقام الشيخ محمد بن شاكر الكتبي (المتوفى سنة ٧٥٤) بتكملته، وسمّاه فوات الوفيات، وكتب أخرى وأعمال جليلة لتحقيق هذا الكتاب المهم ذات قيمة علمية وثروة أدبية.

فقام مسئولو ندوة العلماء باختيار بعض أهم الشخصيات من العبقريات الإسلامية من هذا الكتاب، وهذا الاختيار في المقرر الدراسي في السنة الأولى من الدراسات العليا، فقام الأخ العزيز الفاضل الدكتور محمد فرمان الندوي (الأستاذ في كلية اللغة العربية وآدابها بجامعة ندوة العلماء، لكناؤ، ومساعد التحرير لمجلة البعث الإسلامي الصادرة من ندوة العلماء) بذكر ترجمة المؤلف وبيان منهج الكتاب وشرح كلمات غريبة وتشكيلها وترتيب جديد لهذه الشخصيات البارزة في مختلف مجالات الحياة والعلم والحكم والسياسة والزهد وتربية النفوس، رجاء أن تنشأ في شبابنا الناشئ أخلاق حسنة وسيرة طيبة مقتبسة من حياة هؤلاء العظماء الذين عرض المرتب أحوالهم المؤثرة، والله ولي التوفيق.

١٢/٤/١٤٤٠هـ — محمد الرابع الحسني الندوي

٢١/١٢/٢٠١٨م — ندوة العلماء، لكناؤ

تقديم الكتاب

بقلم: فضيلة الشيخ السيد واضح رشيد الحسني الندوي
(رئيس الشؤون التعليمية لندوة العلماء، لكناؤ)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد كان القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان البرمكي الأربلي الشافعي فاضلاً بارعاً، متفنناً، جيد القريحة، بصيراً بالعربية، علامة في الأدب، والشعر، وأيّام الناس، كثير الاطلاع، حلو المذاكرة، وافر الحرمة.

ولد في أربل بالعراق سنة ٦٠٨هـ، ثم قرأ على مشايخ عصره، وقد تفقه بالموصل على كمال الدين بن يونس، وأخذ بحلب على القاضي بهاء الدين بن شداد وغيرهما.

دخل مصر عام ٦٣٤هـ وسكنها مدةً، وتأهل بها، وناب بها في القضاء عن القاضي بدر الدين السنجاري، ثم قدم الشام، وتولى القضاء في ٦٥٩هـ، ثم عُزل عن القضاء ٦٦٩هـ، وتولى التدريس في المدرسة الفخرية بالقاهره سبعَ سنوات، وأعيد إلى القضاء، ثم عزل عنه في ٦٨٠هـ، وتولى التدريس في المدرسة الأمينية، وتوفى في عام ٦٨١هـ.

بدأ تأليف كتابه الشهير بوفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان في القاهرة في عام ٦٥٤هـ، وتوقف عن التأليف مدةً من الزمن خلال توليه القضاء في دمشق، وانتهى من تأليفه في ٦٧٢هـ، وتوجد نسخة خطية بيده في المتحف البريطاني.

وفيات الأعيان من تأليف القاضي أبي العباس شمس الدين أحمد بن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ) من أشهر كتب التراجم، وأكثرها استيعاباً، وامتداداً للعهد الذي يتناوله، فإن كتب التراجم الأخرى التي ألفت في عصور مختلفة، وبأقلام مؤلفين آخرين، تناولت طبقة دون طبقة، أو عهداً دون عهد، فهي مثلاً تتناول طبقات الأدباء كمعجم الأدباء، أو طبقات الأطباء، أو طبقات المحدثين، أو طبقات النحويين، أو تتناول أعلام منطقة واحدة كالأندلس، ومصر، وبغداد، والشام، أو عهداً أو فترة زمنية معينة محدودة، ولكن وفيات الأعيان كتاب يشتمل على تراجم الأعيان من القرن الأول للهجرة إلى عهد ابن خلكان، وهو القرن السابع للهجرة، وهي فترة زمنية طويلة، كما يشتمل الكتاب على تراجم أعيان الشرق والغرب، وسائر المناطق التي شملتها الدولة الإسلامية من الخلفاء، والوزراء، والكتاب، والشعراء، والفلاسفة، والقادة، والولاة، ونال شهرةً في أي مجال من مجالات الحياة، ولذلك يعد هذا الكتاب مصدراً رئيسياً من مصادر التاريخ، وإن لم يكن كتاباً في التاريخ بمعنى الكلمة، فهو كتاب يشتمل على تراجم رجال صنعوا التاريخ، ووصف أحداث

كان لها وقع على التاريخ العام، ولذلك ظلَّ الكتاب في سائر العصور مرجعاً كبيراً من مراجع الكتابات التاريخية.

ومن سمات الكتاب أنه رغم تأليفه في عهد التصنع والتزخرف، لأنه أُلِّف في القرن السابع، وهو عهد الكاتب الأخير القاضي الفاضل المعروف بإفراطه في الزخرفة اللفظية والكلف بالسجع، يمثل الأسلوب المتميز بسهوله التعبير وحسن البيان، فليس أسلوبه بأسلوب خال من جمال التعبير، وليس بأسلوب مزخرف يغلبه التكلف والتزخرف اللفظي، ويتجلى في التراجم الذوق الأدبي للمؤلف، سواء كان يرسم الشخصية، أو يقدِّم وصفاً لحادث، أو منظر، أو يحكي قصة، أو يتناول موضوعاً علمياً، أو فكرة فلسفية، أما تراجم الشعراء والأدباء في الكتاب فهي حافلة بنوادر ونكت تثير الذوق الأدبي، وتثري الثروة الأدبية وتحيي الملكة الفنية.

يوضح المؤلف منهجه في مقدمته: " لم أذكر في هذا المختصر أحداً من الصحابة رضوان الله عليهم، ولا من التابعين رضي الله عنهم، إلا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس إلى معرفة أحوالهم، وكذلك الخلفاء: لم أذكر واحداً منهم اكتفاءً بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب، لكن ذكرت جماعة من الأفاضل الذين شاهدتهم، ونقلت عنهم، أو كانوا في زمني، ولم أرهم، ليطلع على حالهم من يأتي بعدي.

ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء،

أو الملوك، أو الأمراء، أو الوزراء، أو الشعراء، بل كل من له شهرة بين الناس، ويقع السؤال عنه ذكرته وأثبتُّ في أحواله مما وقفت عليه، مع الإيجاز كي لا يطول الكتاب.

وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة، أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله، ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيملّه.

يتميز كتاب وفيات الأعيان من بين كتب التراجم الأخرى في مجالات كثيرة بالإضافة إلى ما ذكره المؤلف في مقدمته، كتنوع الأساليب، وخفة الروح، واشتماله على النكت والنوادر، وكثرة الاستشهاد بالشعر والكلام البليغ المؤثر والقصص والحكايات التي تزيد السآمة والملل، فيقرأ القارئ عندما يقرأ تراجم الأعيان، ويتفكه باللطائف والطرائف التي تتخلل الترجمة.

من مزايا الكتاب البارزة تعيين اختصاص صاحب الترجمة، إذا كان صاحب الترجمة جامعاً لأشتات العلوم والكمالات، وتحقيق الأماكن، والأسماء، والكنى.

ومن مزايا الكتاب تصحيح الروايات، وإزالة التناقض فيها، والجرح والتعديل، وذلك أمر طبيعي لأن المؤلف هو قاضي القضاة، وفقيه، وقضى مدةً طويلةً من حياته في القضاء في مصر، والشام، والتزم هذا النقد حتى في الروايات الأدبية منظوماً ومنثوراً وأصدر حكمه فيها، وقال: إن هذا الشعر ينسب الى فلان، ولكنه لفلان، وإن هذا الخيال مأخوذ من شعر فلان، فيتحول الكتاب

بهذا التنوع في المواضيع إلى كتاب نقد، وتاريخ، ولغة، ونحو، وبلاغة، وحكايات تسلي النفس، وأقوال حكيمة تهذب النفس، وقضايا علمية تعلم العقل.

فيلزم لطلاب العلم والأدب أن يدرسوا هذا الكتاب دراسةً واعيةً، ويستفيدوا من أسلوبه ومنهجه في مسارحياتهم العلمية، وقد وضعت دار العلوم لندوة العلماء في مقرراتها التعليمية تراجم عدد من الأعيان، وهي حاجة كل طالب ودارس للعلوم الدينية، فإذا لم يطلع على الأعلام البارزين في التاريخ، ولم يعثر على أحوالهم وظروفهم التي مروا بها لا يسهل له الوصول إلى مدارج الكمال.

فأبارك الأخ العزيز الدكتور محمد فرمان الندوي (أستاذ كلية اللغة العربية وآدابها بجامعة ندوة العلماء) على أنه اعتنى بهذا الكتاب، ورتبه من جديد، وحينما كان في التخصص في السنة الثانية من الأدب العربي أعدّ تحت إشرافي بحثه حول "وفيات الأعيان: ومواده العلمية والأدبية"، فكان جديراً بأن يظهر هذا المختار باعتنائه وجهده البالغ، أدعو الله له التوفيق والسداد، إنه على كل شيئ قدير.

كتبه

واضح رشيد الحسني الندوي

ندوة العلماء، لكناؤ

١١/٤/١٤٤٠هـ

١٨/١٢/٢٠١٨م

تقديم الكتاب

بقلم: سعادة الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي
مدير دار العلوم لندوة العلماء
ورئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي، لكناؤ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن موضوع السير والتراجم من أهم الموضوعات التي يتناولها الخاصة والعامة بقراءته، ويرغبون في اقتناء مواده، وجمع شتاته، سواء كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أو سيرة الصحابة، أو سير أعلام الأمة من المفسرين والمحدثين والفقهاء والأدباء والمؤرخين وغيرهم، وقد أدى هذا الموضوع دوراً بارزاً في بناء السيرة المثالية، وصياغة النموذج الأحسن. فتشكلت أمة حملت لواء نشر الإسلام وإيصال دعوته إلى أنحاء العالم. وتلتها أجيال كانت نموذجاً صادقاً للرعيل الأول، فما زالت هذه الدوحة الربانية تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فلا ينضب معينها ولا يجف منهلها أبداً، إن شاء الله تعالى. قال الله تعالى: مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً (الأحزاب: ٢٣).

نبغ في كل عصر رجال دوَّنوا أوضاع وظروف أزمنتهم وعصورهم، وكتبوا سِير رجالها وتراجمهم، وقد ابتدأ فن التاريخ في القرن الهجري الأول، وكان منهم خليفة بن خياط وابن جرير الطبري وغيرهما من فطاحل الأمة — وكان لهم أسلوب في كتابة التاريخ — وإذا دققنا النظر في هذا الموضوع عرفنا أن التاريخ دُون وجُمع من جهتين: إحداهما: الجهة الزمنية من السنوات والأعوام، وأخراهما: الجهة التاريخية للشخصيات والأعلام. وقد كثرت الكتب والمؤلفات حول هذين الأسلوبين من كتابة التاريخ. وقد اختار فيه بعض المؤرخين أسلوباً جافاً، فيوجد في كتاباتهم أسلوب واحد، ولا يختلف أسلوبهم عن جمع المعلومات اللازمة للشخصيات المختلفة المتعددة فحسب، . كأن قلنسوةً واحدةً كُسيت على رؤوس جميع الشخصيات بفرق يسير، ولباساً واحداً فُصل على قامات وهيئات متعددة، وقد عرف الزمان عبر تاريخه الطويل شخصية شُقت طريقاً جديداً، واختارت منهجاً آخر، وقد فاقت بذلك بين المؤرخين وأصحاب السير والتراجم. وهي شخصية ابن خلكان (٦٨١م).

كان شمس الدين أحمد بن خلكان علماً بارزاً ومؤرخاً كبيراً، نشأ في القرن السابع الهجري، قضى حياته كلها في القضاء وحل مشكلات الناس، فكان ماهراً في كتابة التاريخ ونقل أحوال الناس، ويعتبر إماماً في هذا الفن، إنه لم يؤلف إلا كتاباً واحداً، وهو "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، وهو كتاب موثوق به

لدى الخاصة والعامة، ومقبول لدى الجميع. يقول الإمام العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي:

"امتاز ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" من بين مؤلفي كتب التراجم والسير، فإنه إذا وصف أحداً من المترجم لهم بقوله: النحوي أو الفقيه أو الأديب أو المفسر أو اللغوي أو الواعظ، فليس من الميسور زحزحته عن مكانه الرئيسي والاختصاصي، ووضعه في طبقة أخرى، هذا قلما تيسر لمؤلفي كتب التراجم والسير، ولا يقدر عليه إلا صاحب سليقة في فن التراجم، ومن أعطاه الله الدقة في الحكم ورقة الشعور وحسن الذوق والاطلاع الواسع الدقيق" (شخصيات وكتب: ٦، طبع الدار الشامية، بيروت).

ومما يمتاز به هذا الكتاب أن صاحبه قد قام بمراعاة أصول كتابة السيرة والتراجم. وهي على ما يأتي:

١. المعرفة الشخصية الواعية الناقدة، وإذا كانت عن طريق المعاشرة والصحبة فهي من أفضل المؤهلات وأقواها، وإلا فعن طريق الدراسة الأمينة وتتبع الأخبار من غير انحياز.

٢. الاقتدار على البيان والتعبير، وتملك ثروة لغوية وكلمات مميزة فاصلة.

٣. الدقة والأمانة والشعور بالمسئولية.

٤. القدرة على تفصيل اللباس على قامة المترجم له والمعرف له.

٥. معرفة أن للكلمات درجة حرارة وبرودة، فلا توضع كلمة ذات حرارة متصاعدة مكان كلمة ذات حرارة متخفضة.

هذه وأمثالها من الشروط والأصول قد طبقها مؤرخنا العظيم على كتابه " وفيات الأعيان "، فلم يكن كتابه كتاب سيرة وتاريخ فقط، بل هو كتاب نقد وشعر، وأدب ودراسة.

وهذا الكتاب يحتوي على ثمانية مجلدات ضخام، وكان من اللازم أن يطلع طلاب دار العلوم لندوة العلماء على هذا السفر العظيم علماً وأدباً وأسلوباً وتاريخاً وترجمةً، فقررت مطالعة تراجم عدد من الشخصيات المختارة في مناهجها التعليمية بدار العلوم التابعة لتدوة العلماء، التي تستمر الاستفادة منها منذ مدة غير قصيرة، وكانت هذه التراجم مصورةً من الكتاب غير مطبوعة في كتاب مفرد، ولم يكن في بدايته ترجمة ابن خلكان حتى يتعرف الطلاب على خصائصه وخصائص كتابه. فبدا للأخ العزيز الدكتور الأستاذ محمد فرمان الندوي (أستاذ كلية اللغة العربية وآدابها بجامعة ندوة العلماء، لكناؤ، ومساعد التحرير لمجلة البعث الإسلامي). أن يهتم بدراسة هذا الكتاب، وقد كتب بحثاً قيماً حول هذا الكتاب (وفيات الأعيان) حينما كان طالباً في السنة الثانية للتخصص في

الأدب العربي، فهذا الموضوع يوافقه فكراً ومنهجاً وذوقاً ووجداناً، ينجز باعتنائه بالموضوع حاجة أكيدة للطلاب الدارسين في دار العلوم لندوة العلماء.

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل جهوده المتواصلة التي يبذلها في سبيل خدمة الدين والعلم، ويوفقه للمزيد مما يحبه ويرضاه، والله ولي التوفيق والسداد.

كتبه

سعيد الأعظمي الندوي

رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي

ندوة العلماء، لكناؤ

١١/٤/١٤٤٠هـ

١٨/١٢/٢٠١٨م

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

فنظرة عجلى على السيرة النبوية – على صاحبها ألف ألف تحية وسلام – تدل على أن رسائل النبي صلى الله عليه وسلم كانت مدونّةً في القرن الإسلامي الأول، وسار المسلمون على هذا النهج يكتبون التواريخ لعصورهم ويسطرون السِيَر والتراجم لعلماء قريتهم وبلادهم، حتى اجتمعت ثروات علمية وذخائر تاريخية، بعضهم قد أصاب المرمى، وبعضهم قد انشغل عن الهدف الأصلي، وبعضهم قد تورّط في الإغراء في المدح، والمبالغة في الوصف، حتى أهال على من يترجم له ألقاباً ونعوتاً بكل حرِّية، لكن الكُتّاب الذين تبنّوا منهج الوسطية والاتزان في التاريخ، وعرفوا حقيقه التاريخ وشروطه الملتزمة به عددهم قليل، منهم مؤرخنا الشهير ابن خلكان (٦٠٨ -٦٨١هـ) الذي ألف كتابه باسم "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان".

هذا الكتاب ما رتّبه ابن خلكان على ترتيب السنين، ولا حاكى فيه أساليب القدماء من المؤرخين، ذلك لأن الناس قد تعوّدوا هذه الأساليب منذ أمد بعيد، بل رتّبه على الترتيب

الألفبائي، لأنه أسهل طريق في تتبع تراجم الأعلام وسماتهم، وسلك فيه مسلكاً متزناً، وتميز باستخدام الأسلوبين العلمي والأدبي، هذا الذي رفع من قيمة الكتاب روعةً وبهاءاً.

كتاب ابن خلكان كتاب تاريخي، ووثيقة علمية، وثروة قيمة، مملوء بالموادّ العلمية والأدبية، حافلة بالنكت واللطائف المضحكة والمبكية، زاخرة بالنوادر القيّمة، عندما يبدأ الإنسان دراسته فلا يسأم بل يزداد شغفه به كثيراً، ويريد إنهاء مجلداته الضخمة في أقصر مدة.

كان بعض أجزاء هذا الكتاب في مقررات دار العلوم لندوة العلماء منذ أمد بعيد، وكان الطلاب يدرسون هذا المختار بالتصوير، فيواجهون في ذلك صعوبات كثيرة، فخطر ببالي أن أعتني به، وأعرف بشخصية ابن خلكان حتى يسهل للطلاب الاستفادة منه. فها هو ذا بين يدي القراء، وقد رتبت الكتاب من جديد، فجعلت الأعيان تحت عناوين بارزة:

(١) العلماء الربانيون (٢) المحدثون والفقهاء (٣) الأدباء والمؤرخون (٤) الشعراء وأصحاب القريض (٥) الملوك والوزراء.

وعلقت على بعض ما شعرت فيه بكتابة الحواشي، كما أضفت تاريخ الوفاة مع أسماء الأعلام، وكل ذلك لمجرد التسهيل والتيسير لإخواننا الدارسين.

أشكر بهذه المناسبة سماحة العلامة الشيخ السيد محمد

الرابع الحسني الندوي أطال الله بقاءه ذخراً لدينه (رئيس ندوة العلماء)، على أنه كتب مقدمة زادت من قيمة الكتاب، كما أشكر الشيخين الجليلين العظيمين الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي، والأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي (حفظهما الله تعالى ورعاهما) على كتابة كلمات تقديم للكتاب، والشكر موصول لكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل الجليل، ولاسيما الأخ حبيب الرحيم بن الشيخ فضل الرحيم المجددي الندوي والأخ أسعد الحق (من الدراسات العليا في قسم الشريعة) فجزاهما الله خير الجزاء.

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد فرمان الندوي

ندوة العلماء، لكناؤ

١٤٤٠/٤/١٢هـ

٢٠١٨/١٢/١٩م

ابن خلكان: حياته وآثاره

اسمه:

هو شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الأربلي الشافعي، ولد بعد صلاة العصر يوم الخميس ١١ من شهر ربيع الأول سنة ثمان وست مأة (٦٠٨هـ)، بمدينة أربل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين في العراق.

أما نسبته إلى خلكان فإنه كما قال الزبيدي في تاج العروس (ج ١٣/ ٥٥١): كان خلكان جده فنُسب إليه، وقيل: مرة انعقدت المجالس الأدبية والمحافل العلمية، فبدأ يفتخر ويذكر مآثر آبائه، فقال له أهل المجلس: خل، أي دع هذا المدح، كان أبي وجدي مثل ذلك، بل حدِّثنا عما يكون في نفسك الآن، فنُسب إليه، وذلك أشار إليه ابن الرومي في هذا البيت:

ليس الفتى من يقول كان أبي
إن الفتى من يقول هأنذا

أسرته:

كانت أسرة ابن خلكان أسرة علم وتقى، وصلاح

-وهدى، وعلاقتها بالفقه علاقة وطيدة أكيدة، أما جده أبو بكر بن خلكان فهو من أجل تلامذة أبي إسحاق الشيرازي في مضمار الفقه والفتوى، وإنه أول شخص في الأسرة مولَع ومشغوف به، وخلف أربعة أبناء، منهم والد المؤلف لهذا الكتاب " شهاب الدين أحمد " الذي رحل للاستقاء من ينابيع حديثية نبوية وتوجيهات قرآنية من كبار العلماء والشيوخ إلى مناطق متنوعة من مصر والحجاز والعراق، وهكذا تحلى بالفقه بالموصل، أما والدته فكانت بنت العالم العظيم الجليل في زمنه، ونسبها ينحدر إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله، وقد رزقها الله تعالى ثلاثة أولاد منهم: محمد الملقب بهاء الدين، وعيسى ضياء الدين، وأحمد شمس الدين الذي اشتهر أخيرهم بابن خلكان في العالم.

نشأته وتعليمه:

نشأ ابن خلكان وترعرع كالأولاد الأحرار، ولم يكن في الثانية من عمره حتى وافى أجل أبيه، لكن مخايل وجهه رغم يتمه تنم عن أنه يجتهد للغاية ويبذل قصارى جهوده في الحياة، ويكون له شأن عظيم في المستقبل، فكان منذ حداثة سنه ونعومة أظفاره حريصاً ومائلاً إلى طلب العلم وحصوله من الكبار والصغار، واستأذن من العلماء المشهورين فأذنوا له، ونهل من مناهلهم العلمية العذبة.

انخرط ابن خلكان في سلك التعليم والحصول على المواد العلمية والأدبية، وتفقه على يد أبيه في أربل قبل أن ينتقل إلى الموصل ثم إلى حلب، وكذلك قرأ النحو العربي على يد ابن شداد (كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبي)، ثم تلمذ كذلك على الشيخ أحمد بن كمال الدين في قريته، والشيخ كمال الدين موسى بن يونس بالموصل، ولكنه شعر بأن نفسه لم تشبع بمائدة العلم شبعاً تاماً، وليس هناك ما يعجب ويدهش، لأن له بالعلم حباً جماً وشغفاً زائداً، فلذلك ما اكتفى بهذا القدر القليل من العلم والحكمة، حتى أخذ عصا الترحال وشمر عن ساق الجد وراح حتى وصل إلى دمشق (في الشام) عند الشيخ ابن شداد ذي صيت فائق وشهرة كبيرة بعلمه وفضله لدى القاصي والداني، ثم قرأ عنده الأدب العربي، الذي كان كاتباً لسيرة صلاح الدين الأيوبي، وكذلك استفاد من علوم ومعارف إسلامية بزينب بنت الشعرى التي كانت عالمةً معروفةً حينذاك، إلى حضوره في دروس أحمد بن موسى الأربلي الشافعي، فروى ابن خلكان غلته وشفى عطشه من منابع مختلفة من خلال هذه المدة، حتى أصبح عبقرياً، واشتهر بالعلم والفضل في البلاد.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يكتف بالدروس والمحاضرات، بل أراد اللقاءات الأدبية والنوادي العلمية والمذاكرات الدينية مع الشيوخ الوافدين، لكي ينتفع بعصارة تجارب الحياة،

ويأخذ عنهم كثير الأخذ، حتى صار صاحب علم غزير ومعرفة تامة في العلوم كلها، فحالفه التوفيق وتحققت أمنيته بلقاء الشيخ جمال الدين بن السنيزة الشاعر، ما كان مجلسه مجمعاً وحافلاً بمحبي الأدب والعلم، والفضل والمعرفة، وهذا هو الذي قوي فيه الاتجاه الأدبي والشغف الزائد بالعربية والتعصب للشعر، وكذلك استقى ابن خلكان من كبار العلماء والشيوخ.

ومما لا شك فيه أن ابن خلكان يعرف حق المعرفة أن اللغة والأدب وسيلتان مهمتان فعالتان لإبداء ما يجول في الخواطر ويدور في الأخلاد، وفي إبداء الأحاسيس والمشاعر كذلك، فإذا صار الإنسان يفقد روحه وغايته ولا يصل إلى كنه الكلام، فلابد له من تعليم اللغة والأدب في بداية العمر حتى يسهل عليه فهم الكتب المكتوبة في تلك اللغة، وذلك أن اللغة العربية هي أغنى اللغات وأثراها، والثروات العلمية كلها موجودة فيها، فكيف يمكن التغافل والإعراض عنها، فعكف ابن خلكان على دراسة هذه اللغة والتمهر فيها، واستفاد من موفق الدين بن يعيش شارح "المفصل" للزَمخشري، حتى فاق أقرانه في هذا الفن.

ومما يجدر بالذكر أنه استفاد من المؤرخ العظيم عز الدين بن الأثير، والأستاد ابن الجبراني الذي كان أستاذاً ماهراً متضلعاً في

علم اللغة، ثم قصد إلى دمشق، وأقام هنا عاماً كاملاً وسنةً تامةً، ودخل على الشيخ ابن الصلاح كذلك.

ومع ذلك كان ظمأ ابن خلكان لم يسكن ولم يهدأ، بل ظل وأصبح شديداً للغاية على مر العصور، فسافر إلى مصر في سنة ٦٣٧هـ لارتياد دار جديدة من دور العلم، وهذه الرحلة بدأت بكل رغبة ونشاط ولهفة واشتياق، ثم استفاد هنا من أصحاب ابن بري، وأخذ عنهم رواية وإجازة، كما لقي من أصحاب الخشوعي وسمع إليهم وأجازوه، وتعرف على ابن الحاجب، ووجّه إليه بعض الأسئلة، ثم ارتوى من منبعه الفياض، ثم ذهب ابن خلكان إلى القاهرة عاصمة مصر، وأقام عند الشاعر المعروف بهاء الدين الزهير الذي كانت له مكانة مرموقة وذروة سامقة، وكان مشاراً إليه بالبنان والمجلي عند الرهان، فكان لقاء ابن خلكان مع زهير بدايةً للعلاقات والصداقات الودية، فأول من تشبث بذيله هو ابن مطروح، وهكذا تعرف على كبار علماء مصر ابن اللخمي وأبي الحسين اللذين تعاونا على البر والتقوى وإيصاله إلى المناصب العالية.

فأصبحت شخصية حينذاك ابن خلكان معجبةً بالأدباء ورجالات العلم في مصر، وأصبح ذا علم جم ومعرفة بالغة، لذلك فاز في قليل من الوقت بالقدح المعلّى، وصار رجلاً

بارزاً أمام الخاصة والعامّة حتى تولى منصب نيابة القضاء بمصر سنة ٦٥٤هـ.

ابن خلكان قاضياً:

واختاره الملك الظاهر قاضياً في ديار الشام، فراح إلى دمشق وتولى منصب القضاء، يتحدث إحسان عباس عن فوزه بالقضاء الأصلي، يقول: " كان القاضي بالشام هو نجم الدين ابن السني، وقد تحدث الناس فيه بأمور بلغت الظاهر، فقرر أن يعزله واستشار الأمير جمال الدين العزيزي فيمن يوليه مكانه، فأشار إليه بابن خلكان"[1].

فإن هذه المسئوليات الضخمة لم يستطع أن يؤديها منفرداً ووحيداً بكل جدة وإتقان، فقسم الأمور على أفراد ذوي ثقة واعتماد، وما أن مضت عدة شهور حتى بدأت الحروب بين الكفار والمسلمين، وجدد الملك الظاهر البطولات الماضية، ففتح ما قدر الله تعالى له أن يفتح، وفي نفس السنة أجرى الملك تغيراً جذرياً أساسياً في نظام القضاء، فعين القضاة بحسب المذاهب الفقهية، منهم ابن خلكان، فإنه مكث في دمشق عشر سنوات، ولعب دوراً هاماً في تصعيد منصبه القضائي في دمشق من جهة، وكانت مجالاته العلمية لم تنحصر على أفراد القضاء فحسب، بل جاوزت إلى رجال القرى والأرياف من جهة أخرى، وبعد

---

[1] وفيات الأعيان ج ٤٠٧ نقلاً من كتاب ذيل مرأة الزمان.

هذه المدة المديدة عزل بعد عشر سنين تقريباً، (بأن دخل السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء خامس عشر من شهر شوال، وولي القاضي عز الدين بن الصائغ حسب خطة وزيره بهاء الدين ضد ابن خلكان لصديقه عز الدين بن الصائغ، فولاه الملك وعزل ابن خلكان بعد عشر سنين) ثم ذهب ابن خلكان إلى دمشق ولا يزال يبتغي من فضل الله حتى عين بتوفيق الله تعالى مدرساً في المدرسة الفخرية، فمكث في القاهرة سبع سنوات، ولم يضيع أوقاته، بل كان مشغولاً بكتابة مؤلفه الفريد "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان".

وهذه هي الحقيقة بقوله عزوجل " تلك الأيام نداولها بين الناس " بأن شرح الله عزوجل وألقى في قلب الوزير بهاء الدين بن حنّا محبةً جمةً واحتراماً بالغاً لابن خلكان، فبعث إليه رسالة للعودة إلى دمشق مرة أخرى، لكي يجعل والياً مرةً ثانيةً، فرحل ابن خلكان إليه، واستقبل الناس قاضيهم الأسبق استقبالاً حاراً على مجيئه من القاهرة، وكان يوماً مشهوداً بالخير، وخرج الشعراء والأدباء والتجار يرحبّونه ويهنّئونه على قدومه الميمون.

ويقول الصلاح الكتبي في كتابه " فوات الوفيات ": وكان يوماً مشهوداً، وجلس في منصب حكمه، وتكلم الشعراء، وهكذا يتحدث رشيد الدين الفاروقي: " أنت في الشام مثل يوسف في

مصر، وعندي أن الكرام جناس ولكل سبع شداد" وبعد السبع عام فيه يغاث الناس.

وقال سعد الدين الفاروقي:

أذقت الشام سبع سنين جدبا
غداة هجرته هجراً جميلاً
فلمّا زرته من أرض مصر
مددت عليه من كفيك نيلاً

سبب تأليف: وفيات الأعيان:

وكان ابن خلكان يتألم كثيراً من مآسي الأمة، ولا ينصرف انتباهه في أي برهة من الوقت من ذلك الحديث النبوي الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر "، وكان شديد التفكر وبالغ التحرق في شأن المسلمين الضعيف النحيف كذلك، حينما كانت الحملة التتارية قد استهدفت الخاصة والعامة، وفعلت بالمسلمين الأفاعيل، حتى صارت هزيمتها من المستحيل، بينما كان المثل السائر جارياً على الألسن: إذا قيل: "إن التتر انهزموا فلا تصدق"، فحدثت في المسلمين فكرة اليأس من مستقبلهم الزاهر المشرق، وبعثت في نفوس عدد كثير لا بأس به روح التشاؤم بالحياة، وكانت

حياتهم حياة رجل راسب متسفّل في جميع المجالات، وكانت الأحوال والظروف الاجتماعية هكذا مشتعلة، فتحرق قلب ابن خلكان لهذا الوضع الأليم، ولماذا لا يكون قلب المؤمن الحساس الغيور محرقاً، فاجتهد هو كثيراً لإصلاح هذه الظروف الصعبة والأحوال المتشتة، فإن هذا المستقبل المشرق الذي أتى في حياة ابن خلكان كان سبب توقّده للأمة وتحرّقه لها، حيث قال الشيخ ابن عطاء الله الاسكندري رحمه الله تعالى: " من لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة "، فهذا التيقظ الإيماني والنهضة النورانية التي تمثّلت في حياة ابن خلكان إنّما كانت منبعثة من شدّة تمسكه بالثروات العلمية والذخائر القرآنية والنصائح الحديثية، وكل رجل لا يتحرق قلبه بمثل هذه الآلام والرزايا يكون بمثابة جسد بلا روح وقلب بغير إيمان وحنان.

وهذا هو السبب الرئيس الذي نفخ في روحه أن يخطط في تصنيف كتاب يكون فيه ذكر الأوّلين والآخرين والسابقين واللاحقين، ولا يكون فيه تخصيص لجماعة خاصّة أو لطبقة محدودة أو لماهري فن واحد، بل يستوعب جميع ما كان في وسعه وقدرته حتى يكون فيه ذكر أعلام الشيعة.

خصائص كتابه:

فلذلك امتاز كتابه بين الكتب الأخرى برحابة قلبه وسعة

صدره، مع رشاقة أسلوبه وحسن عرضه، ودقة بيانه وعدم تصنعه، حتى صارت قبولاً عاماً وذاعت صيته في الآفاق. وغير عدد من العلماء والطلاب لا يزالون يستفيدون في القرون السالفة إلى يومنا هذا.

هذا الكتاب يحتوي على ثمان مأة وتسع عشرة ترجمة من الأعلام، وقال حاجي خليفة: " إن وفيات الأعيان يشتمل على ٨٤٦/ ترجمة، وقد جاء ت الترجمة في المطبوعة المصرية ٨٢٦، وجاءت في تحقيق الدكتور إحسان عباس ٨٥٥ ترجمة[1]، أما الفرق بين أرقام التراجم فمعنى ذلك أنه كتب في مرحلتين متباعدتين: ففي المرحلة الأولى راجت النسخ متداولة، ثم تولى بالتشذيب والحذف والزيادة، هذا هو السبب في اختلاف الأرقام.

مع كل، فإن ابن خلكان لم يترجم إلا لسبع نساء، منها بوران بنت سهل، أم علي تقية، رابعة العدوية، زينب بنت شعري، شهدة الكاتبة، سكينة بنت سيدنا الحسين، السيدة نفيسة، ولم يركز ابن خلكان جلّ عنايته على المسلمين فقط، بل أحاط في هذا السفر العظيم بجميع الطبقات ولا سيما عدداً وجيهاً من النصرانيين والصابئين، إنه أطال التراجم في أبواب الألف والعين والميم، وأقلّ في الثاء، والذال، والضاد والكاف، واللام.

---

[1] كشف الظنون، ج٢/٢٠١٨.

من أهم ميزات هذا الكتاب:

(١) التراجم العامة، (٢) الجامعية والشمول، (٣) صحة النقل، (٤) ذكر القصص والحكايات بالنقد الكامل، (٥) فصاحة العبارة.

(١) التراجم العامة:

أما التراجم العامّة فلم يقيدها ابن خلكان بأيّ طبقة خاصة أو رجال فن، أو أسرة حكومة أو أحوال سلطنة، بل أحاط فيها بجميع الطبقات جنساً وعلماً وعقيدةً وفناً مثل الرجال والنساء والخوارج والزيدية والشيعة وأهل السنة والجماعة والنصرانية والعلماء والشعراء والتابعين والسلاطين والأمراء والقضاة والكتاب والصوفية والحكماء والأطباء والمحدثين والمجتهدين والفقهاء والصناع والقينات وغير ذلك: إذا أردنا أن نطلع على سيرة هؤلاء الأفراد فلا نحتاج إلى أن نقلّب أوراق الكتب الكثيرة ذات مجلدات كبار، بل في الحقيقة هذا التاريخ الجامع الشامل سيغنينا عن الأسفار الضخمة الطويلة.

إن ابن خلكان هو مخترع لأسلوبه الذي اختاره في هذا الكتاب، قد شهد المؤرخون بتفرّده في هذا المجال، إنه يبين التراجم باختلاف الموضوعات ويتنوع فيه كتنوع الأشخاص، فالإنسان الذي يستأنف قراءته لا يطرأ عليه السآمة والملل، ولا يتركه حتى يتمه، إن حدث جزع من ظلم السلاطين فيضمحل من ذكر العلماء والكبار ونشاطهم الروحي، وإن أصيبت النفس بالملل من

كلام العلماء الصوفيين ليتذوّق القارئ بعد برهة من الوقت بكلام الشعراء الذين لهم علاقة بالجد والهزل.

(٢)الجامعية والشمول:

خُيل إلى كثير من الناس أن وفيات الأعيان هو كتاب للتاريخ فقط، ذكرت فيه تراجم لعدة أفراد، هذا غلط أصيب به عامّة الناس، فكما أنّه يكمن في غضونه مواد علمية للتاريخ فكذلك هو كتاب حافل لعلم الأدب واللغة والأنساب، والجغرافية، عندما يبدأ ابن خلكان ترجمة أيّ واحد من الأعلام فيذكر نسبه بكامله، ثم يبين اختلافاته، وإن يكن للمترجم انتساب أو انتماء إلى قبيلة أو أسرة فيسهب ذكره، ويذكر وطنه وموقعه من الجغرافية، ومن كان مؤسسه في نهاية المطاف، وإذا كان ذكر واحد من الشعراء كتب أبياته المختارة والمنتخبة، وإذا اقتضت الحاجة إلى حل غامض أو فك لغز، أو بيان الأمثال فينفك كله بأسلوب رصين، إنه مع علو كعبه في العلوم والفنون تارة يظهر في لباس ابن الأثير، وتارة في صورة السمعاني، وحيناً في شكل ياقوت الحموي، وأخرى في شارة ابن حوقل، ومرة في شكل الثعالبي، وثانية يبدو في زيّ الأصمعي اللغوي.

(٣)صحة النقل:

إن صرح التاريخ يقوم عند ابن خلكان على صحة النقل

والرواية، كثير من المؤلفين عندما يريدون أن ينقلوا شيئاً في تأليفهم فينقلون معناه في ألفاظهم وعباراتهم، ولا يذكرون من أين أخذوا المعنى والمفهوم، لكن مؤلفنا ابن خلكان يردّ على هذا المنهج المعتاد ردّاً شنيعاً، وينقل لفظاً لفظاً للكتاب، إن كانت الحاجة للنقل، وهو يظُنّ أن زيادة لفظة أو نقصها تكون إثماً كبيراً في صدد النقل، ولا شك في أنّ مثل هذا العمل لا يكون أحسن وأجدر بالاحتذاء في قانون الحيطة، يكتب ابن خلكان وهو يبين منهجه في النقل:

"فإني بذلت الجهد في التقاطه من مظانّ الصحة، ولم أتساهل في نقله ممن لا يوثق به بل تحرّيت فيه حَسْبَما وصلت القدرة إليه"[1].

(٤)ذكر القصص والحكايات بالنقد الكامل:

وإن من أهم محاسن ابن خلكان أنه لا يعتمد على ذكر القصص والحكايات فقط، بل يزنها على ميزان النقد، فمن أدخل فن النقد في التاريخ هو ابن خلدون، لكنه لم يعمل بما قال، فمؤرخنا ابن خلكان كان أوّل مخترع لفلسفة التاريخ عملياً، وقد بسط القول في عشرات من الأمكنة غائصاً في بحر النقد والرواية.

(٥)فصاحة عبارته:

من مزاياه أنه يكتب عبارة فصيحة، قليل المباني، كثير

[1] وفيات الأعيان، ج١/ ٢١، الطبعة الجديدة.

المعاني، كأنه ينثر الدُرر من فمه، ويمطر الرحمة من سحاب جوده، إن الابتكار والجدة من أحسن مميزات قلمه الرشيق، أياً كانَ موضوعه يأتي بتنوع جميع الأبواب والفصول، بحيث لا يشك أحد في عربيته الخالصة القحة. لو قارنا بينه وبين ابن خلدون يفوق مؤرخنا ابن خلكان، وذلك لأن عبارته كالماء الزلال والسحر الحلال، تؤثر في النفوس وتقع بالقلب، وعبارة ابن خلدون معقدة لأنه ما أعاد النظر في مسودته بعد ما بيضت.

آثاره:

مازال ابن خلكان مشتغلاً طوال حياته بالأعمال العلمية التي ما كانت محدودةً في القضاء والإفتاء وحل عويصات الناس فقط، بل كانت ممتدةً إلى مسئوليات التدريس والإشراف والتصنيف والتأليف. ما صنّف ابن خلكان إلا كتاباً واحداً باسم "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان"، لكن العلاّمة السيد سليمان الندوي يفيدنا في مقاله المنشور في مجلّة الندوة: "انّه أَلّفَ كتاباً على ترجمة عبد الله بن المبارك الذي كان محدثاً جليلاً للقرن الثاني، وهذا في مجلدين"[1].

وكذلك كان في أمنيته أن يكتب كتاباً كبيراً جامعاً شاملاً لجميع الأعصر حسب السنوات والخدمات، لكنه لم يوفق،

---

[1] مجلة الندوة، ص: ١٠، سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.

فإن الشيئ الذي ملأ هذا الفراغ، وسدّ هذه الثلمة العظيمة وطبّق صيته الخافقين، وتغلّب على جميع كتب التاريخ، وخنق أصوات الكاذبين هو كتابه الشهير " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ".

وفاته:

توفي ابن خلكان في ٢٦ رجب وقت صلاة العصر سنة ٦٨١ بالمدرسة الجمالية النجيبية عن ٧٣، ودفن يوم الأحد التالي، وصلّي عليه بجامع دمشق ثم بسفح جبل قاسيون في الصحراء شرقي التربية الصوابية بسفح الجبل من جانبه الغربي.

العلماء الربانيون

الحسن البصري (١١٠هـ)

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة. وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة، رضي الله عنها، ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه، فدر عليه ثديها فشربه، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي، فقيل له: فأيهما كان أفصح قال: الحسن.

ونشأ الحسن بوادي القُرى، وكان من اجمل أهل البصرة، حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما حدث.

وحكى الأصمعي عن أبيه قال: ما رأيت أعرض زنداً من الحسن، كان عرضه شبراً.

[وكان الحسن يقص في الحج، فمرَّ به علي بن الحسين عليهما السلام، فقال له: يا شيخ! أترضى نفسك للموت قال: لا، قال: فلله في أرضه معاد غير هذا البيت، قال: لا، قال: فثم دار للعمل

غير هذه الدار قال: لا، قال: فعملك للحساب قال: لا، قال: فلم تشغل الناس عن طواف البيت؟ قال: فما قصَّ الحسن بعدها.

وقيل: إن رجلاً أتى الحسن فقال: يا أبا سعيد! إني حلفت بالطلاق أن الحجاج في النار فما تقول: أقيم مع امرأتي أم أعتزلها؟ فقال له: قد كان الحجاج فاجراً فاسقاً وما أدري ما أقول لك، إن رحمة الله وسعت كل شيء؛ وإن الرجل أتى محمد بن سيرين فأخبره بما حلف فرد عليه شبيهاً بما قاله الحسن؛ وإنه أتى عمرو بن عبيد فقال له: أقم مع زوجتك، فإن الله تعالى إن غفر للحجاج لم يضرك الزنا، ذكر ذلك المختار في تاريخه.

وكان في جنازة وفيها نوائح، ومعه رجل، فهمَّ الرجل بالرجوع فقال له الحسن: يا أخي! إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسناً أسرع ذلك في دينك.

وقيل له: ألا ترى كثرة الوباء: فقال: أنفق ممسك وأقلع مذنب، واتعظ جاحد.

ونظر إلى جنازة قد ازدحم الناس عليها فقال: مالكم تزدحموتها تلك هي ساريته في المسجد، اقعدوا تحتها حتى تكونوا مثله؛ وحدث الحسن بحديث فقال له رجل: يا أبا سعيد! عن من؟ فقال: وما تصنع بعمن؟ أما أنت فقد نالتك موعظته وقامت عليك حجته؛ وقال له رجل: أنا أزهد منك [وأفصح]، قال: أما أفصح فلا، قال: فخذ علي كلمة واحدة، قال: هذه؛ وقال لفرقد بن يعقوب: بلغني أنك [لا تأكل] الفالوذج، فقال: يا أبا

سعيد! أخاف ألا أؤدي شكره، قال الحسن: يا لكع! هل تقدر تؤدي شكر الماء البارد الذي تشربه، وقيل للحسن: إن فلاناً اغتابك، فبعث إليه طبق حلوى وقال: بلغني أنك أهديت إلي حسناتك فكافأتك؛ وقريب من هذا قول سفيان بن الحسين، قال: كنت جالساً عند إياس بن معاوية فنلت من إنسان، فقال: هل غزوت العام الترك والروم ولم يسلم منك أخوك المسلم، وسمع رجلاً يشكو عليه إلى آخر فقال: أما إنك تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك].

ومن كلامه: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه إلا الموت.

ولما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق وأضيفت إليه خراسان، وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك، استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والشعبي، وذلك في سنة ثلاث ومائة، فقال لهم: إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة، وقد ولاني ما ترون فيكتب إلي بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر، فما ترون؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية، فقال ابن هبيرة: ما تقول يا حسن؟ فقال: يا ابن هبيرة! خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك؛ يا ابن

هبيرة! إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ فأجازهم ابن هبيرة وأضعف جائزة الحسن، فقال الشعبي لابن سيرين: سفسفنا له فسفسف لنا.

ورأى الحسن يوماً رجلاً وسيماً حسن الهيئة، فسأل عنه فقيل: إنه يسخر للملوك ويحبونه، فقال: لله أبوه، ما رأيت أحداً طلب الدنيا بما يشبهها إلا هذا.

وكانت أمه تقص للنساء، ودخل عليها يوماً وفي يدها كراثة[1] تأكلها، فقال لها: يا أماه! ألقي هذه البقلة الخبيثة من يدك، فقالت: يا بني! إنك شيخ قد كبرت وخرفت، فقال: يا أماه! أينا أكبر وأكثر كلامه حكم وبلاغة. وكان أبوه من سبي مَيسان، وهو صقع بالعراق.

ومولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة، ويقال: إنه ولد على الرق، وتوفي بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومائة، رضي الله عنه، وكانت جنازته مشهودة؛ قال حُميد الطويل: توفي الحسن عشية الخميس، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة، ودفناه فتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة حتى لم يبق بالمسجد من يصلي العصر.

---

[1] الكُرّاثة: بَقْل زراعي، شبيه بالبصل.

وأغمي على الحسن عند موته، ثم أفاق فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم.

وقال رجل قبل موت الحسن لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة بالمسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن.

ولم يشهد ابن سيرين جنازته لشيء كان بينهما، ثم توفي بعده بمائة يوم، كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

وميسان - بفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وبعد الألف نون - قال السمعاني: هي بُليدة بأسفل البصرة.

الغزالي (٥٠٥هـ)

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، اشتغل في مبدء أمره بطوس على أحمد الراذكاني، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وجدَّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه، وصنف في ذلك الوقت، وكان أستاذه يتبجح به، ولم يزل ملازماً له إلى أن توفي في التاريخ المذكور في ترجمته، فخرج من نيسابور إلى العسكر، ولقي الوزير نظام الملك فأكرمه وعظَّمه وبالغ في الإقبال عليه، وكان بحضرة الوزير جماعة من الأفاضل، فجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدة مجالس، فظهر عليهم واشتهر اسمه وسارت بذكره الركبان.

ثم فوض إليه الوزير تدريس مدرسته النظامية بمدينة بغداد، فجاءها وباشر إلقاء الدروس بها، وذلك في جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وأعجب به أهل العراق وارتفعت عندهم منزلته، ثم ترك جميع ما كان عليه في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وسلك طريق الزهد والانقطاع، وقصد الحج [وناب عنه أخوه أحمد في التدريس] فلما رجع توجه إلى الشام فأقام

بمدينة دمشق مدةً يذكر الدروس في زاوية الجامع في الجانب الغربي منه، وانتقل منها إلى البيت المقدس، واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظّمة، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة، ويقال: إنه قصد منها الركوب في البحر إلى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش، - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى - فبينا هو كذلك بلغه نعي يوسف بن تاشفين المذكور، فصرف عزمه عن تلك الناحية.

ثم عاد إلى وطنه بطوس واشتغل بنفسه وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون، منها ما هو أشهرها كتاب "الوسيط" و"البسيط" و"الوجيز" و"الخلاصة" في الفقه، ومنها "إحياء علوم الدين" وهو من أنفس الكتب وأجملها، وله في أصول الفقه "المستصفى" فرغ من تصنيفه في سادس المحرم سنة ثلاث وخمسمائة، وله المنحول والمنتحل في علم الجدل، وله "تهافت الفلاسفة" و"محك النظر" و"معيار العلم" و"المقاصد والمضنون به على غير أهله" و"المقصد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى" و"مشكاة الأنوار" و"المنقذ من الضلال" و"حقيقة القولين" وكتبه كثيرة وكلها نافعة.

ثم ألزم بالعود إلى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية، فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته في وطنه، واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسةً للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير: من ختم القرآن ومجالسة أهل

القلوب والقعود للتدريس، إلى أن انتقل إلى ربه. ويُروى له شعر، فمن ذلك ما نسبه إليه الحافظ أبو سعد السمعاني في الذيل وهو قوله:

حلّت عقارب صدغه في خده
قمرا فجلَّ بها عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجها
فمن العجائب كيف حلت فيه

ورأيت هذين البيتين في موضع آخر لغيره، والله أعلم. ونسب إليه العماد الأصبهاني في " الخريدة " هذين البيتين، وهما:

هبني صبوت كما ترون بزعمكم
وحظيت منه بلثم خدٍ أزهر
إني اعتزلت فلا تلوموا إنه
أضحى يقابلني بوجه أشعر

ونسب إليه البيتين اللذين قبلهما.

وكانت ولادته سنة خمسين وأربعمائة، وقيل: سنة إحدى وخمسين بالطابران، وتوفي يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة بالطابران.

ورثاه الأديب أبو المظفر محمد الأبيوردي الشاعر المشهور - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى - بأبيات فائية من جملتها:

مضى وأعظم مفقود فُجعتُ به
من لا نظير له في الناس يخلفه

وتمثل الإمام إسماعيل الحاكمي بعد وفاته بقول أبي تمام من جملة قصيدة مشهورة:

عجبت لصبري بعده وهو ميِّت
وكنت امرءا أبكي دما وهو غائب
على أنها الأيام قد صِرن كلها
عجائب حتى ليس فيها عجائب

ودُفن بظاهر الطابران، وهي قصبة طوس، رحمه الله تعالى.

وقد تقدم الكلام على الطوسي والغزالي في ترجمة أخيه أحمد الزاهد الواعظ المذكور في حرف الهمزة، والطابران، بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وراء مهملة وبعد الألف الثانية نون، وهي إحدى بلدتي طوس، كما تقدم في ترجمة أحمد أيضا.

المحدثون والفقهاء

الإمام أبو حنيفة (١٥٠هـ)

أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه الفقيه الكوفي، مولى تيم الله ابن ثعلبة، وهو من رهط حمزة الزيات؛ كان خزازاً يبيع الخز، وجده زوطى من أهل كابل، وقيل: بابل، وقيل: من أهل الأنبار، وقيل: من أهل نسا، وقيل: من أهل ترمذ، وهو الذي مسه الرق فأعتق، وولد ثابت على الإسلام.

وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: أنا إسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان، من أبناء فارس من الأحرار، والله ما وقع علينا رق قط. ولد جدي سنة ثمانين، وذهب ثابت إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وهو صغير، فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته، ونحن نرجو أن يكون الله تعالى قد استجاب ذلك لعلي فينا، والنعمان بن المرزبان أبو ثابت هو الذي أهدى لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الفالوذج في المهرجان النيروز، فقال: مهرجونا كل يوم، هكذا قال الخطيب في تاريخه، والله تعالى أعلم.

وأدرك أبو حنيفة أربعةً من الصحابة، رضوان الله عليهم وهم: أنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى بالكوفة، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة بمكة[1]، ولم

---

[1] وهو صحابي آخر من رأى الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابة وفاةً

يلق أحداً منهم ولا أخذ عنه، وأصحابه يقولون: لقي جماعة من الصحابة وروى عنهم، ولم يثبت ذلك عند أهل النقل. وذكر الخطيب في " تاريخ بغداد " أنه رأى أنس بن مالك رضي الله عنه. وأخذ الفقه عن حماد بن أبي سليمان، وسمع عطاء بن أبي رباح وأبا إسحاق السبيعي ومحارب بن دثار والهيثم بن حبيب الصواف ومحمد بن المنكدر ونافعاً مولى عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، وهشام بن عروة وسماك بن حرب؛ وروى عنه عبيد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح والقاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وغيرهم.

وكان عاملاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله تعالى، ونقله أبو جعفر المنصور من الكوفة إلى بغداد، فأراده على أن يوليه القضاء فأبى، فحلف أبو حنيفة أن لايفعل [فحلف المنصور ليفعلن [فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل، وقال: إني لن أصلح إلى قضاء]، فقال الربيع بن يونس الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني، وأبى أن يلي، فأمر به إلى الحبس في الوقت، والعوام يدعون أنه تولى عدد اللبن أياماً ليكفر بذلك عن يمنه، ولم يصح هذا من جهة النقل. وقال الربيع: رأيت المنصور

بالإجماع، ولد في السنة الثالثة من الهجرة، فأدرك من حياة النبي صلى الله عليه وسلم ثماني سنين، كان يسكن الكوفة، فلما مات علي بن أبي طالب انصرف إلى مكة المكرمة، واستقر بها حتى مات.

ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء، وهو يقول: اتق الله، ولا ترعي أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب، ولو اتجه الحكم عليك، ثم تهددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك، ولا أصلح لذلك، فقال له: كذبت أنت تصلح، فقال له: قد حكمت لي على نفسك، كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب.

وحكى الخطيب أيضاً في بعض الروايات: أن المنصور لما بنى مدينته ونزلها، ونزل المهدي في الجانب الشرقي وبنى مسجد الرصافة، أرسل إلى أبي حنيفة فجيء به، فعرض عليه قضاء الرصافة فأبى، فقال له: إن لم تفعل ضربتك بالسياط، قال: أو تفعل قال: نعم، فقعد في القضاء يومين فلم يأته أحد، فلما كان في اليوم الثالث أتاه رجل صفار ومعه آخر، فقال الصفار: لي على هذا درهمان وأربعة دوانيق ثمن تَور صُفر[1]، فقال أبو حنيفة: اتق الله وانظر فيما يقول الصفار، قال: ليس له علي شيء، فقال أبو حنيفة للصفار: ما تقول؟ فقال: استحلفه لي، فقال أبو حنيفة للرجل: قل والله الذي لا إله إلا هو، فجعل يقول، فلما رآه أبو حنيفة معتمداً على أن يقول قطع عليه وضرب بيده إلى كُمه، فحل صرة وأخرج درهمين ثقيلين للصفار: هذان الدرهمان عوض عن باقي تورك، فنظر الصفار إليهما وقال:

---

[1] تورصفر: إناء من نحاس – الدانق ج دوانق: سُدُس الدرهم.

نعم، فأخذ الدرهمين، فلما كان بغد يومين اشتكى أبو حنيفة فمرض ستة أيام ثم مات.

وكان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين أراده أن يلي القدر بالكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، فأبى عليه فضربه مأة سوط وعشرة أسواط، كل يوم عشرة أسواط، وهو على الامتناع، فلما رأى ذلك خلّى سبيله. وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه، إذا ذكر ذلك بكى وترحم على أبي حنيفة، وذلك بعد أن ضرب أحمد على القول بخلق القرآن.

وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: مررت مع أبي بالكُناسة فبكى، فقلت له: يا أبت ما يبكيك؟ فقال: يا بني! في هذا الموضع ضرب ابن هبيرة أبي عشرة أيام، في كل يوم عشرة أسواط، على أن يلي القضاء، فلم يفعل.

والكُناسة، بضم الكاف، موضع بالكوفة.

" قال الفضل بن غانم: كان أبو يوسف مريضاً شديد المرض فعاده أبو حنيفة مراراً، فصار إلى آخر مرة، فرآه ثقيلاً فاسترجع ثم قال: لقد كنت أؤملك بعدي للمسلمين، ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير. ثم رزق العافية وخرج من الغد فأخبر أبو يوسف بقول أبي حنيفة فيه فارتفعت نفسه وانصرفت وجوه الناس إليه فعقد لنفسه مجلساً في الفقه، وقصر عن لزوم مجلس أبي حنيفة فسأل عنه فأخبر أنه عقد مجلساً وأنه يلقي كلامك فيه، فدعا رجلاً كان له عنده قدر فقال: سر إلى مجلس يعقوب فقل له: ما تقول في

رجل دفع إلى قصار ثوباً ليقصره بدرهم إليه بعد أيام في طلب الثوب، فقال له القصار: ما لك عندي شيء وأنكره، ثم إن رب الثوب رجع إليه فدفع له الثوب مقصوراً، أله أجرة؟ فإن قال لك: له أجرة فقل له: أخطأت، وإن قال: لا أجرة له، فقل: أخطأت؛ فسار إليه وسأله، فقال أبو يوسف: له أجرة، فقال: أخطأت، فنظر ساعة ثم قال: لا أجرة له، فقال له: أخطأت، فقام أبو يوسف من ساعته فأتى أبا حنيفة فقال: ما جاء بك إلاّ مسألة القصار، قال: أجل، قال: سبحان الله، من قعد يفتي الناس وعقد مجلساً يتكلم في دين الله وهذا قدره، لا يحسن أن يجيب في مسألة من الاجارات فقال: يا أبا حنيفة، علمني، فقال: إن كان قصره بعدما غصبه فلا أجرة لأنه قسر لصاحبه؛ ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه".

وكان أبو حنيفة حسن الوجه حسن المجلس، شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه، وكان ربعةً من الرجال، وقيل: كان طوالا تعلوه سمرة، أحسن الناس منطقاً وأحلاهم نغمة.

وذكر الخطيب في تاريخه أن أبا حنيفة رأى في المنام كأنه ينبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعث من سأل ابن سيرين، فقال ابن سيرين: صاحب هذه الرؤيا يثور علماً، لم يسبقه أحد قبله.

قال الشافعي رضي الله عنه، قيل لمالك: هل رأيت أبا حنيفة؟ فقال: نعم، رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته.

وروى حرملة بن يحيى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: الناس عيال على هؤلاء الخمسة: من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة ممن وفق له الفقه، ومن أراد أن يتبحر في الشعر فهو عيال على زُهير بن أبي سلمى، ومن أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي، ومن أراد أن يتبحر في التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان، هكذا نقله الخطيب في تاريخه.

وقال يحيى بن معين: القراءة عندي قراءة حمزة، والفقه فقه أبي حنيفة، على هذا أدركت الناس. وقال جعفر بن الربيع: أقمت على أبي حنيفة خمس سنين، فما رأيت أطول صمتاً منه، فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي، وسمعت له دوياً وجهارةً في الكلام.

وكان إماماً في القياس؛ قال علي بن عاصم: دخلت على أبي حنيفة وعنده حجام يأخذه من شعره، فقال للحجام: تتبع مواضع البياض، فقال الحجام: لا تزد، فقال: ولم؟ قال لأنه يكثر، قال فتتبع مواضع السواد لعله يكثر، وحكيت لشريك هذه الحكاية فضحك وقال: لو ترك أبو حنيفة قياسه لتركه مع الحجام.

وقال عبد الله بن رجاء: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف، يعمل نهاره أجمع، حتى إذا جنَّه الليل رجع إلى منزله، وقد حمل لحماً فطبخه أو سمكة فيشويها ثم لا يزال يشرب، حتى إذا دب الشراب فيه غرَّد بصوت، وهو يقول:

أضـــاعوني وأي فتـــى أضـــاعوا

ليـــوم كريهـــة وســـداد ثغـــر

فلا يزال يشرب ويردِّد هذا البيت حتى يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمع جلبته كل ليلة، وأبو حنيفة كان يصلي الليل كله، ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه، فقيل: أخذه العسس[1] منذ ليال وهو محبوس، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غدٍ، وركب بغلته، واستأذن على الأمير، فقال الأمير: ائذنوا له وأقبلوا به راكباً ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته، ففعل، ولم يزل الأمير يوسع له في مجلسه، وقال: ما حاجتك؟ فقال: لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال، يأمر الأمير بتخليته، فقال: نعم، وكل من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا، فأمر بتخليتهم أجمعين، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه وقال: يا فتى أضعناك فقال: لا، بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه.

وقال ابن المبارك: رأيت أبا حنيفة في طريق مكة، وشوي لهم فصيل سمين، فاشتهوا أن يأكلوه بخلٍ فلم يجدوا شيئاً يصبون فيه الخل، فتحيروا، فرأيت أبا حنيفة وقد حفر في الرمل حفرة وبسط عليها السفرة، وسكب الخل على ذلك الموضع، فأكلوا الشواء بالخل، فقالوا: تحسن كل شيء، فقال: عليكم بالشكر، فإن هذا شيء ألهمته لكم فضلاً من الله عليكم.

---

[1] عسس ج عاس: الحارس.

" وحكى الحسن بن زياد قال: دفن رجل مالاً في موضع، ثم نسي في أي موضع دفنه فلم يقع عليه، فجاء إلى أبي حنيفة فشكا إليه فقال له أبو حنيفة: ما هذا فقهاً فأحتال لك، ولكن اذهب فصلِّ الليلة، ففعل الرجل، ولم يقم إلا أقلَّ من ربع الليل حتى ذكر الموضع، فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره، فقال له: قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي حتى يذكرك، فهلا أتممت ليلتك شكراً لله عزوجل.

وقال ابن شبرمة: كنت شديد الإزراء على أبي حنيفة، فحضر الموسم وكنت حاجاً يومئذ، فاجتمع إليه قوم يسألونه، فوقفت من حيث لا يعلم من أنا، فجاءه رجل فقال: يا أبا حنيفة! قصدتك أسألك عن أمر أهمَّني وأزعجني قال: وما هو؟ قال: لي ولد وليس لي غيره، فإن زوجته طلق، وإن سريته أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ قال له: نعم اشتر الجارية التي يرضاها لنفسه ثم زوجها منه، فإن طلق رجعت إليك مملوكتك، وإن أعتق أعتق ما لايملك، وإن ولدت ثبت نسبه لك، فعلمت أن الرجل فقيه من يومئذ وكففت عن ذكره إلا بخير".

وقال ابن المبارك أيضاً: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله! ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ما سمعته يغتاب عدواً له قط، فقال: هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها.

وقال أبو يوسف: دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة، فقال الربيع صاحب المنصور، وكان يعادي أبا حنيفة: يا أمير المؤمنين!

هذا أبو حنيفة يخالف جدك، كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين جاز الاستثناء، وقال أبو حنيفة: لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين، فقال أبو حنيفة: يا أميرالمؤمنين، إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة، قال: وكيف قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم، فضحك المنصور وقال: يا ربيع! لا تتعرض لأبي حنيفة، فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع: أردت أن تشيط بدمي، قال: لا، ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي.

وكان أبو العباس الطوسي سيء الرأي في أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك، فدخل أبو حنيفة على المنصور، وكثر الناس، فقال الطوسي: اليوم أقتل أبا حنيفة، فأقبل عليه فقال: يا أبا حنيفة! إن أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل لا يدري ما هو، أيسعه أن يضرب عنقه فقال: يا أبا العباس! أمير المؤمنين يأمر بالحق أم الباطل؟ فقال: بالحق، قال: أنقذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه؛ ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه: إن هذا أراد أن يوثقني فربطته.

وقال يزيد بن الكميت: كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى، فقرأ بنا علي بن الحسن المؤذن ليلة العشاء الأخيرة سورة " إذا زلزلت " وأبو حنيفة خلفه، فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يتفكر ويتنفس، فقلت: أقوم لا

يشتغل قلبه بي، فلما خرجت تركت القنديل ولم يكن فيه إلا زيت قليل، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم وقد أخذ بلحية نفسه، وهو يقول: يا من يجزي بمثقال ذرة خير خيراً، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شراً، أجر النعمان عبدك من النار، ومما يقرب منها من السوء، وأدخله في سعة رحمتك، قال: فأذنت وإذا القنديل يزهر وهو قائم، فلما دخلت قال لي: تريد أن تأخذ القنديل، قلت: قد أذنت لصلاة الغداة، فقال: اكتم علي ما رأيت، وركع ركعتين وجلس حتى أقمت الصلاة وصلى معنا الغداة على وضوء أول الليل.

وقال أسد بن عمرو: صلى أبو حنيفة فيما حفظ عليه صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء أربعين سنة، وكان عامة ليلة يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة، وكان يُسمع بكاؤه في الليل حتى يرحمه جيرانه، وحفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة.

وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن أبيه: لما مات أبي سألنا الحسن بن عمارة أن يتولى غسله ففعل، فلما غسله قال: رحمك الله وغفر لك! لم تفطر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسد يمينك في الليل منذ أربعين سنة، وقد أتعبت من بعدك، وفضحت القراء.

ومناقبه وفضائله كثيرة، وقد ذكر الخطيب في تاريخه منها شيئاً كثيراً، ثم أعقب ذلك بذكر ما كان الأليق في تركه والإضراب عنه، فمثل هذا الإمام لا يشك في دينه، ولا في ورعه وتحفظه،

ولم يكن يعاب بشيء سوى قلة العربية، فمن ذلك ما روي أن أبا عمرو بن العلاء المقرىء النحوي - المقدم ذكره - سأله عن القتل بالمثل: هل يوجب القوَد أم لا؟ فقال: لا، كما هو قاعدة مذهبه خلافاً للإمام الشافعي رضي الله عنه، فقال له أبو عمرو: ولو قتله بحجر المنجنيق، فقال: ولو قتله بأبا قبيس، يعني الجبل المطلَّ على مكة حرسها الله تعالى. وقد اعتذروا عن أبي حنيفة بأنه قال ذلك على لغة من يقول: إن الكلمات الست المعربة بالحروف - وهي أبوه وأخوه وحموه وهنوه وفوه وذو مال - أن إعرابها يكون في الأحوال الثلاث بالألف، وأنشدوا في ذلك:

إن أباهـــا وأبـــا أباهـــا

قـــد بلغـــا في المجـــد غايتاهـــا

وهي لغة الكوفيين، وأبو حنيفة من أهل الكوفة، فهي لغته، والله أعلم.

وهذا وإن كان خروجاً عن المقصود لكن الكلام ارتبط بعضه ببعض فانتشر.

وكانت ولادة أبي حنيفة سنة ثمانين للهجرة، وقيل: سنة إحدى وستين، والأول أصح، وتوفي في رجب، وقيل: في شعبان سنة خمسين ومائة، وقيل: لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من السنة، وقيل: إحدى وخمسين، وقيل: ثلاث وخمسين، والأول أصح؛ وكانت وفاته في السجن ليلي القضاء فلم يفعل، هذا هو الصحيح، وقيل: إنه لم يمت في السجن،

وقيل: توفي في اليوم الذي ولد فيه الإمام الشافعي رضي الله عنهما، ودفن بمقبرة الخيرزان، وقبره هناك مشهور يُزار.

وزُوطَى: بضم الزاي وسكون الواو وفتح الطاء المهملة وبعدها ألف مقصورة، وهو اسم نبطي.

وكابل: بفتح الكاف وضم الباء الموحدة بعد الألف وبعدها لام، وهي ناحية معروفة من بلاد الهند ينسب إليها جماعة من العلماء وغيرهم.

وأما بابل والأنبار فهما معروفان فلا حاجة إلى الكلام عليهما.

وبنى شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ملك شاه السلجوقي على قبر الإمام أبي حنيفة مشهداً وقبةً، وبنى عنده مدرسةً كبيرةً للحنيفة، ولما فرغ من عمارة ذلك ركب إليها في جماعة من الأعين ليشاهدوها، فبينما هم هناك إذ دخل عليهم الشريف أبو جعفر سعود المعروف بالبياض الشاعر - المقدم ذكره - وأنشده:

ألم تر أن العلم كان مبدداً
فجمعه هذا المغيب في اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة
فأنشرها فعل العميد أبي سعد

فأجازه أبو سعد جائزة سَنيةً.

ولهذا أبي سعد مدرسة بمدينة مرو، وله عدة ربط وخانات

في المفاوز، وكان كثير الخير وعمل المعروف، وانقطع في آخر عمره عن الخدمة ولزم بيته، وكانوا يراجعونه في الأمور، وتوفي في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة بأصبهان، رحمه الله تعالى.

وكان بناء المشهد والقبة في سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وقد تقدم في ترجمة ألب أرسلان محمد والد السلطان ملك شاه أنه بنى مشهداً على قبر الإمام أبي حنيفة، وكذلك وجدته في بعض التواريخ، وقد غاب عني الآن من أين نقلته، ثم وجدت بعد ذلك أن الذي بنى مشهداً والقبة أبو سعد المذكور، والظاهر أن أبا سعد بناهما نيابةً عن ألب أرسلان المذكور، وهو كان المباشر كما جرت عادة النواب مع ملوكهم، فنسبت العمارة إليه بهذه الطريق، ويدل على ذلك أن تاريخ العمارة في أيام ألب أرسلان، أبو سعد كان مستوفياً في أيامه، ثم استمر على وظيفته في أيام ولده ملك شاه، وهذا إنما ذكرته لنجمع بين النقلين، والله أعلم.

الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)

الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصي بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، الشيباني، المروزي الأصل. هذا هو الصحيح في نسبه، وقيل: إنه من بني مازن بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة، وهو غلط، لأنه من بني شيبان بن ذهل لا من بني ذهل بن شيبان، وذهل بن ثعلبة المذكور هو عم ذهل بن شيبان، فليعلم ذلك والله أعلم.

وخرجت أمه من مرو وهي حامل به، فولدته في بغداد، في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وقيل: إنه وُلد بمرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع.

وكان إمام المحدثين، صنف كتابه المسند، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره، وقيل: إنه كان يحفظ ألف ألف حديث، وكان من أصحاب الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنهما - وخواصه، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر، وقال في حقه: خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا

أفقه من ابن حنبل، ودُعي إلى القول بخلق القرآن [أيام المعتصم وكان أمياً لايقرأ ولا يكتب فقال أحمد: أنا رجل علمت علما ولم أعلم فيه بهذا، فأحضر له الفقهاء والقضاة فناظروه...] فلم يجب، فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع، وكان ضربه في العشر الأخير من شهر رمضان، سنة عشرين ومائتين [وكانت مدة حبسه إلى أن خلي عنه ثمانية وعشرين يوماً وبقي إلى أن مات المعتصم، فلما ولي الواثق منعه من الخروج من داره إلى أن أخرجه المتوكل وخلع عليه وأكرمه ورفع المحنة في خلق القرآن]. وكان حسن الوجه، ربعةً يخضب بالحناء خضبا ليس بالقاني، في لحيته شعرات سود. أخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل، منهم محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، ولم يكن في آخر عصره مثله في العلم والورع.

توفي ضحوة نهار الجمعة، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وقيل: بل لثلاث عشرة ليلة بقين من الشهر المذكور، وقيل: من ربيع الآخر، سنة إحدى وأربعين ومائتين ببغداد، ودفن بمقبرة باب حرب، وباب حرب منسوب إلى حرب بن عبد الله، أحد أصحاب أبي جعفر المنصور، وإلى حرب هذا تنسب المحلة المعروفة بالحربية، وقبر أحمد بن حنبل مشهور بها يُزار، رحمه الله تعالى. وحضر من حضر جنازته من الرجال، فكانوا ثمانمائة ألف، ومن النساء ستين ألفا، وقيل: إنه أسلم يوم مات عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمجوس.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتابه الذي صنفه في أخبار بشر بن الحارث الحافي رضي الله عنه في الباب السادس والأربعين ما صورته: حدث إبراهيم الحربي قال: رأيت بشر بن الحارث الحافي في المنام كأنه خارج من باب مسجد الرصافة وفي كمه شيء يتحرك، فقلت: مافعل الله بك؟ فقال: غفرلي وأكرمني، فقلت: ماهذا الذي في كمك؟ قال: قدم علينا البارحة روح أحمد بن حنبل فنثر عليه الدر والياقوت، فهذا مما التقطت، قلت: فما فعل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل قال: تركتهما وقد زارا رب العالمين ووضعت لهما الموائد، قلت: فلم لم تأكل معهما أنت؟ قال: قد عرف هوان الطعام علي فأباحني النظر إلى وجهه الكريم.

وفي أجداده حيَّان - بفتح الحاء المهملة وتشديدالياء المثناة من تحتها، وبعد الألف نون، وبقية الأجداد لاحاجة إلى ضبط أسمائهم لشهرتها وكثرتها، ولولا خوف الإطالة لقيدتها.

ورأيت في نسبه اختلافاً، وهذا أصح الطرق التي وجدتها.

وكان له ولدان عالمان، وهما صالح وعبد الله، فأما صالح فتقدمت وفاته في شهر رمضان سنة ست وستين ومائتين، وكان قاضي أصبهان فمات بها، ومولده في سنة ثلاث ومائتين، وأما عبد الله فإنه بقي إلى سنة تسعين ومائتين، وتوفي يوم الأحد لثمان بقين من جمادى الأولى - وقيل: الآخرة - وله سبع وسبعون سنة، وكنيته أبو عبد الرحمن، وبه كان يكنى الإمام أحمد، رحمهم الله أجمعين.

الفقيه أبو إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ)

الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، الفيروزآبادي الملقب جمال الدين ؛ سكن بغداد، وتفقه على جماعة من الأعيان، منهم أبو أحمد عبد الوهاب بن محمد بن أمين وأبو عبد الله محمد بن عبد الله البيضاوي وأبو القاسم منصور بن عمر الكرخي وغيرهم، وصحب القاضي أبا الطيب الطبري كثيراً، وانتفع به، وناب عنه في مجلسه، ورتبه معيداً في حلقته، وصار إمام وقته ببغداد، ولما بنى نظام الملك مدرسته ببغداد، سأله أن يتولاها، فلم يفعل، فولاها لأبي نصر ابن الصباغ صاحب الشامل مدة يسيرة، ثم أجاب إلى ذلك فتولاها، ولم يزل بها إلى أن مات، وقد بسطت القول في ذلك في ترجمة الشيخ أبي نصر عبد السيد بن الصباغ، صاحب الشامل، فليطلب منه. وسمع الحديث من أبي بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي البرقاني الحافظ وأبي علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان البزار وأبي الفرج محمد بن عبد الله الخرجوشي الشيرازى وغيرهم. وصنف التصانيف المباركة المفيدة، منها: المهذب في المذهب، والتنبيه في الفقه، واللُمع وشرحها في أصول الفقه، والنكت في الخلاف، والتبصرة، والمعونة، والتلخيص، في الجدل، وغير ذلك، وانتفع به خلق كثير.

وله الشعر الحسن، فمنه:

سألتُ الناس عن خِلٍ وفيٍ
فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بذيل حُر
فإن الحرَّ في الدنيا قليل

وقال الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى: كان ببغداد شاعر مفلق[1]، يقال له عاصم، فقال يمدح الشيخ أبا إسحاق قدس الله سره:

تراه من الذكاء نحيف جسمٍ
عليه من توقده دليل
إذا كان الفتى ضخمَ المعالي
فليس يضره الجسم النحيل

وكان في غاية من الورع والتشدد في الدين، ومحاسنه أكثر من أن تُحصر.

وُلد في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة بفيروزاباذ، وتوفي ليلة الأحد، الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، قاله السمعاني في الذيل، وقيل: في جمادى الأولى، قاله السمعاني أيضاً، سنة ست وسبعين وأربعمائة، ببغداد، ودفن من الغد بباب أبرز، رحمه الله.

---

[1] شاعِرٌ مُفْلِقٌ: شاعِرٌ مُبْدِع يأتي في الشعر بالغرائب، من باب أَفْلَقَ.

ورثاه أبو القاسم بن ناقياء، واسمه عبد الله، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، بقوله:

أجـــرى المـــدامع بالـــدم المهـــراق
خطـــب أقـــام قيامـــة الآمـــاق
مـــا لليـــالي لا تؤلـــف شملـــها
بعـــد ابـــن بجـــدتها أبـــي إســـحاق
إن قيـــل مـــات فلـــم يمـــت مـــن ذكـــره
حـــي علـــى مـــرِّ الليـــالي بـــاقي

وذكره محب الدين النجَّار في تاريخ بغداد، فقال في حقه: إمام أصحاب الشافعي، ومن انتشر فضله في البلاد، وفاق أهل زمانه بالعلم والزهد، وأكثر علماء الأمصار من تلامذته. ولد بفير وزاباذ، بلدة بفارس، ونشأ بها، ودخل شيراز، وقرأ بها الفقه على أبي عبد الله البيضاوي، وعلى أبي أحمد عبد الوهاب بن رامين، ثم دخل البصرة وقرأ على الحوزي، ودخل بغداد في شوال سنة خمس عشرة وأربعمائة، وقرأ على أبي الطيب الطبري، ومولده في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة.

وقال أبو عبد الله الحميدي: سألته عن مولده، فذكر دلائل دلت على سنة ست وتسعين، قال: ورحلت في طلب العلم إلى شيراز، في سنة عشر وأربعمائة، وقيل: إن مولده في سنة خمس وتسعين، والله أعلم.

وجلس أصحابه للعزاء بالمدرسة النظامية، ولما انقضى العزاء رتب مؤيد الملك بن نظام الملك أبا سعد المتولي مكانه، ولما بلغ الخبر نظام الملك كتب بإنكار ذلك، وقال: كان من الواجب أن تغلق المدرسة سنةً لأجله، وزرى على من تولى موضعه، وأمرأن يدرس الشيخ أبو نصر عبد السيد بن الصباغ في مكانه، رحمهم الله تعالى.

وفير وزاباذ - بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحت وضم الراء المهملة وبعد الواو الساكنة زاء مفتوحة معجمة وبعد الألف باء موحدة وبعدالألف ذال معجمة - بلدة بفارس، ويقال: هي مدينة جور، قاله الحافظ أبو سعد بن السمعاني في كتابه الأنساب، وقال غيره: هي بفتح الفاء، والله أعلم.

إمام الحرمين (٤٧٨هـ)

أبو المعالي عبد الملك بن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه، الجويني، الفقيه الشافعي الملقب ضياء الدين، المعروف بإمام الحرمين؛ أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته، المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك، وقد تقدم ذكر والده في العبادلة، ورُزق من التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره، وكان يذكر دروساً يقع كل واحد منها في عدة أوراق ولا يتلعثم في كلمة منها، وتفقه في صباه على والده أبي محمد، وكان يُعجب بطبعه وتحصيله وجودة قريحته وما يظهر عليه من مخايل الإقبال، فأتى على جميع مصنفات والده وتصرَّف فيها، حتى زاد عليه في التحقيق والتدقيق. ولما توفي والده قعد مكانه للتدريس، وإذا فرغ منه مضى إلى الأستاذ أبي القاسم الإسكافي الإسفرايني بمدرسة البيهقي حتى حصل عليه علم الأصول، ثم سافر إلى بغداد ولقي بها جماعة من العلماء، ثم خرج إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين، وبالمدينة، يدرِّس ويفتي ويجمع طرق المذهب، فلهذا قيل له إمام الحرمين، ثم عاد إلى نيسابور في أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان السلجوقي، والوزير يومئذ نظام الملك،

فبنى له المدرسة النظامية بمدينة نيسابور، وتولى الخطابة بها، وكان يجلس للوعظ والمناظرة، وظهرت تصانيفه، وحضر دروسه الأكابر من الأئمة وانتهت إليه رياسة الأصحاب، وفوض إليه أمور الأوقاف، وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، مسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة.

وصنف في كل فن: منها كتاب "نهاية المطلب في دراية المذهب" الذي ما صُنف في الإسلام مثله، قال أبو جعفر الحافظ: سمعت الشيخ أبا إسحاق الشيرازي يقول لإمام الحرمين: يا مفيد أهل المشرق والمغرب! أنت اليوم إمام الأئمة. وسمع الحديث من جماعة كبيرة من علمائه، وله إجازة من الحافظ أبي نعيم الأصبهاني صاحب "حلية الأولياء". ومن تصانيفه "الشامل" في أصول الدين، و"البرهان" في أصول الفقه، و"تلخيص التقريب" و"الإرشاد" و"العقيدة النظامية" و"مدارك العقول" لم يتمه، وكتاب "تلخيص نهاية المطلب" لم يتمه، و"غياث الأمم في الإمامة" و"مغيث الخلق في اختيار الأحق" و"غنية المسترشدين" في الخلاف، وغير ذلك من الكتب. وكان إذا شرع في علوم الصوفية وشرح الأحوال أبكى الحاضرين، ولم يزل على طريقة حميدة مرضية من أول عمره إلى آخره.

أخبرني بعض المشايخ أنه وقف على جلية أمره في بعض الكتب، وأن والده الشيخ أبا محمد رحمه الله تعالى، كان في

أول أمره ينسخ بالأجرة، فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى به جارية موصوفة بالخير والصلاح، ولم يزل يطمعها من كسب يده أيضاً إلى أن حملت بإمام الحرمين، وهو مستمر على تربيتها بكسب الحل، فلما وضعته أوصاها أن لا تمكن أحداً من إرضاعه، فاتفق أنه دخل عليها يوماً وهي متألمة والصغير يبكي، وقد أخذته امرأة من جيرانهم وشاغلته بثديها فرضع منه قليلاً، فلما رآه شق عليه وأخذه إليه ونكس رأسه ومسح على بطنه وأدخل إصبعه في فيه ولم يزل يفعل به ذلك حتى قاء جميع ما شربه، وهو يقول: يسهل علي أن يموت ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمه. ويحكى عن إمام الحرمين أنه كان تلحقه بعض الأحيان فترةٌ في مجلس المناظرة فيقول: هذا من بقايا تلك الرضعة.

ومولده في ثامن عشر المحرم سنة تسع عشرة وأربعمائة، ولما مرض حمل إلى قرية من أعمال نيسابور، يقال لها بشتنقان موصوفة باعتدال الهواء وخفة الماء، فمات بها ليلة الأربعاء وقت العشاء الآخرة الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ونقل إلى نيسابور تلك الليلة، ودفن من الغد في داره، ثم نقل بعد سنين إلى مقبرة الحسين فدفن بجنب أبيه، رحمهما الله تعالى، وصلى عليه ولده أبو القاسم، فأغلقت الأسواق يوم موته وكسر منبره في الجامع وقعد الناس لعزائه وأكثروا فيه المراثي.

ومما رثي به:

قلـــوب العـــالمين علـــى المقـــالي
وأيـــام الـــورى شـــبه الليـــالي
أيثمـــر غصـــن أهـــل العلـــم يومـــاً
وقـــد مـــات الإمـــام أبـــو المعـــالي

وكانت تلامذته يومئذٍ قريباً من أربعمائة واحد، فكسروا محابرهم وأقلامهم وأقاموا على ذلك عاماً كاملاً.

الأستاذ الإسفرايني (٤١٨هـ)

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفرايني الملقب بركن الدين، الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي؛ ذكره الحاكم أبو عبد الله، وقال: أخذ عن الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور، وأقر له بالعلم أهل العراق، وخراسان، وله التصانيف الجليلة، منها: كتابه الكبير الذي سماه جامع الحلي في أصول الدين والرد على الملحدين، رأيته في خمسة مجلدات، وغير ذلك من المصنفات، وأخذ عنه القاضي أبو الطيب الطبري أصول الفقه بإسفراين، وبنيت له المدرسة المشهورة بنيسابور، وذكره أبو الحسن عبد الغافر الفارسي، في سياق تاريخ نيسابور، فقال في حقه: أحد من بلغ حد الاجتهاد من العلماء لتبحره في العلوم واستجماعه شرائط الإمامة، وكان طراز ناحية الشرق، وكان يقول: أشتهي أن أموت بنيسابور حتى يصلي علي جميع أهل نيسابور، فتوفي بها يوم عاشوراء، سنة ثماني عشرة وأربعمائة، ثم نقلوه إلى إسفراين، ودفن في مشهده، رحمه الله تعالى. واختلف إلى مجلسه أبو القاسم القشيري، وأكثر الحافظ أبو بكر البيهقي الرواية عنه في تصانيفه وغيره من المصنفين، رحمهم الله أجمعين، وسمع بخراسان أبا بكر الإسماعيلي، وبالعراق أبا محمد دعلج بن أحمد السجزي وأقرانهما، وسيأتي الكلام على إسفراين في ترجمة الشيخ أبي أحمد بن محمد الإسفرايني.

ابن قرقول (٥٦٩ هـ)

أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن باديس بن القائد الحمزي، المعروف بابن قرقول صاحب كتاب مطالع الأنوار الذي وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض.

كان من الأفاضل، وصحب جماعةً من علماء الأندلس، ولم أقف على شيء من أحواله سوى هذا القدر، وكانت ولادته بالمرية من بلاد الأندلس، في صفر سنة خمس وخمسمائة، وتوفي بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصر سادس شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، وكان قد صلى الجمعة في الجامع، فلما حضرته الوفاة تلا سورة الإخلاص، وجعل يكرِّرها بسرعة، ثم تشهد ثلاث مرات، وسقط على وجهه ساجداً فوقع ميتاً، رحمه الله تعالى.

وقرقول: بضم القافين، وسكون الراء المهملة بينهما، وبعد الواو لام والمرية - بفتح الميم وكسر الراء المهملة وتشديد الياء المثناة من تحتها، وبعدها هاء - وهي مدينة كبيرة بالأندلس على شاطىء البحر، من مراسي المراكب.

وفاس - بالفاء والسين المهملة - وهي مدينة عظيمة بالمغرب بالقرب من سبتة.

ونسبته الحمزي - بفتح الحاء المهملة وبعد الميم الساكنة زاء معجمة - إلى حمزة آشير - بمد الهمزة وكسر الشين المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها راء مهملة - وحمزة هي بُليدة بإفريقية، مابين بجاية وقلعة بني حماد، كذا ذكر لي جماعة من أهل تلك البلاد، وآشير مذكورة في ترجمة زيري بن مناد - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى -.

ابن الماجشون (٢١٤هـ)

أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، واسمه ميمون، وقيل: دينار، القرشي التيمي المنكدري مولاهم، المدني الأعمى الفقيه المالكي؛ تفقه على الإمام مالك، رضي الله عنه، وعلى والده عبد العزيز وغيرهما. وقيل: إنه عمي في آخر عمره، وكان مولعاً بسماع الغناء، قال أحمد بن حنبل: قدم علينا ومعه من يغنيه. وحدث وكان من الفصحاء، روي أنه كان إذا ذاكره الإمام الشافعي رضي الله عنه لم يعرف الناس كثيراً مما يقولان، لأن الشافعي تأدب بهذيل في البادية، وعبد الملك تأدب في خؤولته من كلب بالبادية. وقال يحيى بن أحمد بن المعذل: كلما تذكرت أن التراب يأكل لسان عبد الملك صغرت الدنيا في عيني. وسئل أحمد بن المعذل فقيل له: أين لسانك من لسان أستاذك عبد الملك فقال: كان لسان عبد الملك إذا تعايا أحيى من لساني إذا تحايا.

ومات عبد الملك المذكور سنة ثلاث عشرة ومائتين، وقال أبو عمر بن عبد البر: توفي سنة اثنتي عشرة، وقيل: سنة أربع عشرة ومائتين، رحمه الله تعالى.

والماجشون: بفتح الميم وبعد الألف جيم مكسورة ثم شين

معجمة مضمومة وبعد الواو نون، وهو المورد، ويقال: الأبيض الأحمر، وهو لقب أبي يوسف يعقوب بن أبي سلمة المذكور، وهو عم والد عبد الملك المذكور، لقبته بذلك سكينة بنت الحسين بن علي، رضي الله عنهم، وجرى هذا اللقب على أهل بيته من بنيه وبني أخيه، وقيل: إن أصلهم من أصبهان، فكان إذا سلم بعضهم على بعض قال: شزني، شوني، فسمي الماجشون، حكاه الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الجرجاني، وقال أبو داود: كان عبد الملك الماجشون لا يعقل الحديث، قال ابن البرقي: دعاني رجل أن أمضي إليه، فجئناه فإذا هو لا يدري الحديث أيش هو، وذكره محمد بن سعد في " الطبقات الكبرى " وقال: كان له فقه ورواية.

والمنكدري: منسوب إلى المنكدر بن عبد الله بن هدير القرشي التيمي والد محمد وأبي بكر وعمر بني المنكدر، وقد استوفى ابن قتيبة حديثهم في كتاب " المعارف " في ترجمة محمد بن المنكدر.

الأدباء والمؤرخون

أبو الفضل بن العميد (٣٦٠هـ)

أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده، لقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم، وكان فيه فضل وأدب، وله ترسل.

وأما ولده أبو الفضل فإنه كان وزير ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه الديلمي والد عضد الدولة - وقد تقدم ذكرهما - وتولى وزارته عقيب موت وزيره أبي علي ابن القمي، وذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، وكان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه، وكان يسمى الجاحظ الثاني، وكان كامل الرياسة جليل المقدار، من بعض أتباعه الصاحب ابن عباد - المقدم ذكره - ولأجل صحبته قيل له الصاحب، وكان له في الرسائل اليد البيضاء.

قال الثعالبي في كتاب " اليتيمة ": كان يقال: بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد، وقد تقدم ذكر عبد الحميد.

وكان الصاحب ابن عباد قد سافر إلى بغداد، فلما رجع إليه قال له: كيف وجدتها فقال: بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد، وكان يقال له " الأستاذ " وكان سائساً مدبراً للملك قائماً بحقوقه.

وقصد جماعةً من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة، ومدحوه بأحسن المدائح، فمنهم أبو الطيب المتنبي، ورد عليه وهو بأرجان، ومدحه بقصائد إحداهما التي أولها:

بادٍ هواك صبرتَ أو لم تصبرا
وبُكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

ومنها عند مخلصها:

أرجان أيتها الجياد فإنه
عزمي الذي يذر الوشيج مكسرا
لو كنتُ أفعل ما اشتهيت فعاله
ما شق كوكبك العجاج الأكدرا
أمي أبا الفضل المبر، أليتي
لأيمن أجل بحر جوهرا
أفتى برؤيته الأنام وحاش لي
من أكون مقصِّرا أو مُقصِرا

ومنها:

من مبلغ الأعراب أني بعدها
شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وملِلت نحر عشارها فأضافني
من ينحر البدر النضار لمن قرى

وسمعـــت بطليمـــوس دارس كتبـــه
متملّكـــاً متبـــدِّياً متحضّـــرا
ولقيـــتُ كـــل الفاضـــلين كأنمـــا
ردَّ الإلـــه نفوسَـــهم والأعصـــرا
نســقوا لنـــا نســق الحســاب مقـــدَّما
وأتـــى فـــذلك إذا أتيـــت مـــؤخرا

وهـي مـن القصـائد المختـارة. وقـال ابـن الهمـداني في كتـاب "عيون السير": أعطاه ثلاثة آلاف دينار.

وقد استعمل أرجان بتخفيف الراء، وهـي مشـددة علـى مـا ذكره الجوهري في كتاب "الصحاح" والحازمي في كتـاب "ما اتفق لفظه وافترق مسماه" وابن الجواليقي في كتاب "المعرب". وقد سبق ذكر هذه القصيدة في ترجمة أبي الفضل جعفر بن الفرات أن المتنبي نظمها فيه وهو بمصر، فلم يرضه لم ينشده إياها، فلما توجه إلى بلاد فارس صرفها لابن العميد.

وكان أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي - المقدم ذكره - قد ورد عليه وهو بالري وامتدحه بقصيدته التي أولها:

بـــــرح اشـــــتياق وادكـــــار
ولهيـــــب أنفـــــاس حـــــرار
ومـــــدامع عبراتهـــــا
تـــرفض عـــن نـــوم مطـــار

لله قلـــــبي مــــا يجـــن

مــن الهمــوم ومـــا يـــواري

لقــد انقضـــى ســـكر الشـــبا

ب ومـــا انقضـــى وصــب الخمــار

وكـــبرت عـــن وصـــل الصـــغا

ر ومـــا ســـلوت عـــن الصـــغار

ســـــقياً لتغليســــــي إلى

بـــاب الرصـــافة وابتكـــاري

أيـــام أخطـــر في الصـــبا

نشـــوان مســـــحوب الإزار

حجـــي إلى حجـــر الصـــرا

ة وفي حـــــدائقها اعتمـــــاري

ومـــــواطن اللـــــذات أو

طـــاني ودار اللـــــهو داري

ومنها:

لم يبـــق لـــي عـــيش يلـــذ

ســـوى معـــاقرة العقـــار

حســـبي بألحـــان قمـــر

ت بهـــن ألحـــان القمـــاري

وإذا استهل ابن العميد
د تضاءلت ديم القطار
خرق صفت أخلاقه
صفو السبيك من النضار
فكأنما رفدت موا
هبه بأمواج البحار
وكأن نشر حديثه
نشر الخزامى والعرار
وكأننا مما تف
رق راحتاه في نثار
كلف بحفظ السر تح
سب صدره ليل السرار

ومنها:

إن الكبار من الأمو
ر تنال بالهمم الكبار
وإلى أبي الفضل اتبع
ت هواجس النفس السواري

فتأخرت صلته عنه، فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة، فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع ورقة حاله التي ورد عليها إلى بابه، فتوسل إلى أن دخل عليه يوم المجلس وهو حفل

بأعيان الدولة ومقدمي أرباب الديوان، فوقف بين يديه وأشار إليه بيده، وقال: أيها الرئيس! إني لزمتك لزوم الظل، وذللت لك ذل النعل، وأكلت النوى المحرق انتظاراً لصلتك، والله ما بي من الحرمان، ولكن شماتة الأعداء، قوم نصحوني فاغتششتهم، وصدقوني فاتهمتهم، فبأي وجه ألقاهم، وبأي حجة أقاومهم ولم أحصل من مديح بعد مديح ومن نثر بعد نظم إلا على ندم مؤلم ويأس مسقم، فإن كان للنجاح علامة فأين هي؟ وما هي إن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك، وإن الذين هجوا كانوا مثلك، فزاحم بمنكبك أعظمهم سناماً وأنورهم شعاعاً، وأشرفهم بقاعاً، فحار ابن العميد وشده ولم يدر ما يقول، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة، وعن الإطالة مني في المعذرة، وإذا تواهبنا ما دفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه، فقال ابن نباتة: أيها الرئيس! هذه نفثة صدر دوي منذ زمان، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر، والغني إذا مطل لئيم، فاستشاط ابن العميد، وقال: والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى، ولقد نافرت العميد من دون ذا حتى دفعنا إلى قري عائم ولجاج قائم، ولست ولي نعمتي فاحتملك، ولا صنيعتي فأغضي عليك، وإن بعض ما أقررته في مسامعي ينقض مرة الحليم ويبدد شمل الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحي ولا كلفتك تقريضي؛ فقال ابن نباتة: صدقت أيها

الرئيس! ما استقدمتني بكتاب ولا استدعيتني برسول، ولا سألتني مدحك ولا كلفتني تقريضك، ولكن جلست في صدر ديوانك بأبهتك وقلت: لا يخاطبني أحد إلا بالرياسة، ولا ينازعني خلق في أحكام السياسة، فإني كاتب ركن الدولة وزعيم الأولياء والحضرة، والقيم بمصالح المملكة، فكأنك دعوتني بلسان الحال ولم تدعني بلسان المقال، فثار ابن العميد مغضباً وأسرع في صحن داره إلى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس وماج الناس، وسمع ابن نباتة وهو في صحن الدار ماراً يقول: والله! إن سف التراب والمشي على الجمر أهون من هذا، فلعن الله الأدب إذا كان بائعه مهيناً له، ومشتريه مماسكاً فيه. فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه التمسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه، فكأنما غاص في سمع الأرض وبصرها، فكانت حسرة في قلب ابن العميد إلى أن مات.

ثم إني وجدت هذه القصيدة وصورة هذا المجلس منسوبين إلى غير ابن نباتة، وكشفت ديوان ابن نباتة فلم أر هذه القصيدة فيه، والله أعلم بالصواب، ثم وجدت في كتاب "الوزيرين" تأليف أبي حيان التوحيدي هذه القصيدة لأبي محمد عبد الرزاق بن الحسين المعروف بابن أبي الثياب البغدادي اللغوي المنطيقي الشاعر، وهذه المخاطبة لشاعر آخر من أهل الكرخ يعرف بمويه، والله أعلم.

وكان أبو الفرج أحمد بن محمد الكاتب مكيناً عند مخدومه

ركن الدولة ابن بويه، وله الرتبة العلية لديه، وكان ابن العميد لا يوفيه حقه من الإكرام، فعاتبه مراراً فلم يفد، فكتب إليه:

مالـــك موفـــور فمـــا بالـــه
أكســـبك التيـــه علـــى المعـــدم
ولم إذا جئـــــت نهضـــــنا وإن
جئنـــا تطاولـــت ولم تـــتمم
وإن خرجنـــا لم تقـــل مثـــل مـــا
نقـــول قـــدم طرفـــه قـــدم
إن كنـــت ذا علـــم فمـــن ذا الـــذي
مثـــل الـــذي تعلـــم لم يعلـــم
ولســـت في الغـــارب مـــن دولـــة
ونحـــن مـــن دونـــك في المنســـم
وقـــد ولينـــا وعزلنـــا كمـــا
أنـــت فلـــم نصـــغر ولم تعظـــم
تكافـــأت أحوالنـــا كلـــها
فصـــل علـــى الإنصـــاف أو فاصـــرم

وللصاحب ابن عباد فيه مدائح كثيرة، وكان ابن العميد قد قدم مرة إلى أصبهان والصاحب فيها فكتب إليه:

قـــالوا ربيعـــك قـــد قـــدم
قلـــت البشـــارة إن ســـلم

أهـــو الربيـــع أخـــو الشـــتا
ء أم الربيـــع أخـــو الكـــرم
قـــالوا الـــذي بنوالـــه
أمـــن المقـــل مـــن العـــدم
قلـــت الـــرئيس ابـــن العمـــي
د إذاً، فقـــالوا لـــي نعـــم

وكان ابن العميد كثير الإعجاب بقول بعضهم:

وجـاءت إلى سـتر علـى البـاب بيننـا
مجـاف وقـد قامـت عليـه الولائـد
لتسـمع شـعري وهـو يقـرع قلبهـا
بـوحي تؤديـه إليـه القصـائد
إذا سمعـت مـني لطيفـاً تنفسـت
لـه نفسـاً تنقـد منـه القلائـد

ولابن العميد شعر، وما أعجبني الذي وقفت عليه منه حتى أثبته، سوى ما ذكره ابن الصابي في كتاب " الوزراء "، وهو قوله:

رأيـت في الوجـه طاقـة بقيـت
سـوداء عـيني تحـب رؤيتهـا
فقلـت للبـيض إذ تروعهـا
بـالله إلا رحمـت وحـدتها

فقـــل لبـــث الســـوداء في وطـــنٍ
تكـــون فيـــه البيضـــاء ضـــرتها

وذكر له الأمير أبو الفضل الميكالي في كتاب " المنتخل " :

آخ الرجـــــال مـــــن الأبـــــا
عـــــد والأ قـــــارب لا تقـــــارب
إن الأقـــــــــارب كالعقـــــــــا
رب بـــــل أضـــــر مـــــن العقـــــارب

وتوفي ابن العميد المذكور في صفر، وقيل: في المحرم بالري، وقيل: ببغداد، سنة ستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وذكر أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي في كتاب " الوزراء " أنه توفي في سنة تسع وخمسين وثلثمائة، وكذا قال جده إبراهيم الصابي في كتاب " التاجي "، والله أعلم.

وكان أبو الفضل ابن العميد يعتاده القولنج تارة والنقرس أخرى، تسلمه هذه إلى هذه، وقال لسائل سأله: أيهما أصعب عليك وأشق؟ قال: إذا عارضني النقرس فكأني بين فكي سبع يمضغني، وإذا اعتراني القولنج وددت لو استبدلت النقرس عنه، ويقال: إنه رأى أكاراً في بستان يأكل خبزاً ببصل ولبن وقد أمعن منه، فقال: وددت لو كنت كهذا الأكار آكل ما أشتهي؛ قلت: وهذه شيمة الدنيا، قل أن تصفو من الشوائب.

ورأيت في بعض المجاميع أن الصاحب بن عباد عبر على باب

داره بعد وفاته فلم ير هناك أحداً بعد أن كان الدهليز يغص من زحام الناس، فأنشد:

أيهـــا الربـــع لم عـــلاك اكتئـــاب
أيـــن ذاك الحجـــاب والحجـــاب
أيـــن مـــن كـــان يفـــرغ الـــدهر منـــه
فهـــو اليـــوم في الـــتراب تـــراب
قـــل بـــلا رقبـــة وغـــير احتشـــام
مـــات مـــولاي فـــاعتراني اكتئـــاب

ثم رأيت في كتاب "اليميني" للعتبي هذه الأبيات، وقد نسبها إلى أبي العباس الضبي، ثم قال: ويقال: إنها لأبي بكر الخوارزمي، وقد اجتاز بباب الصاحب ابن عباد، ولا يمكن أن تكون على هذا التقدير للخوارزمي لأنه مات قبل الصاحب كما تقدم ذكره.

ومثل هذه الحكاية ما حكاه علي بن سليمان قال: رأيت بالري دار قوم لم يبق منها إلا رسم بابها، وعليه مكتوب:

أعجـــب لصـــرف الزمـــان معتـــبرا
فهـــذه الـــدار مـــن عجائبهـــا
عهـــدي بهـــا بـــالملوك زاهيـــة
قـــد ســـطع النـــور في جوانبهـــا
تبـــدلت وحشـــة بســـاكنها
مـــا أوحـــش الـــدار بعـــد صـــاحبها

ولما مات رتب مخدومه ركن الدولة ولده ذا الكفايتين أبا الفتح علياً مكانه في دست الوزارة، وكان جليلاً نبيلاً سرياً فضائل وفواضل، وهو الذي كتب إليه المتنبي الأبيات الخمسة الدالية الموجودة في ديوانه أثناء مدائح والده، ولا حاجة إلى ذكرها.

وذكره الثعالبي في " اليتيمة " في ترجمة والده، وقال: كتب إلى صديق له يستهديه خمراً مستوراً عن والده " قد اغتنمت الليلة - أطال الله بقاءك يا سيدي - رقدة من عين الدهر، وانتهزت فرصة من فرص العمر، وانتظمت مع أصحابي في سمط الثريا، فإن لم تحفظ علينا هذا النظام، بإهداء المدام، عدنا كبنات نعش والسلام " وذكر له مقاطيع من الشعر. ولم يزل أبو الفتح المذكور في وزارة ركن الدولة إلى أن توفي مؤيد الدولة فاستوزره أيضاً، وأقام على ذلك مدة مديدة، وكانت بينه وبين الصاحب ابن عباد منافسة، ويقال: إنه أغرى قلب مؤيد الدولة عليه، فظهر له منه التنكر والإعراض، وقبض عليه في بعض شهور سنة ست وستين وثلثمائة، وله في اعتقاله أبيات شرح فيها حاله.

قال الثعالبي: اجتاح ماله وقطع في العقوبة أنفه وجز لحيته - وقال غيره: وقطع يديه - فلما أيس من نفسه وعلم أنه لا مخلص له مما هو فيه ولو بذل جميع ما تحتوي عليه يده، فتق جيب جبة كانت عليه واستخرج منها رقعة فيها تذكرة بجميع ما كان له ولوالده من الذخائر والدفائن، وألقاها في النار، فلما علم أنها احترقت قال للموكل به: افعل ما أمرت به. فوالله لا يصل إلى

صاحبك من أموالنا درهم واحد، فما زال يعرضه على أنواع العذاب حتى تلف، وكان القبض عليه يوم الأحد ثامن عشر ربيع الآخر سنة ست وستين وثلثمائة، وكانت ولادته سنة سبع وثلثمائة.

ولما انصرف أهل خراسان في سنة خمس وخمسين وثلثمائة أيام الغزاة من الري بعد الحادثة التي جرت هناك - وهي واقعة مشهورة ودفع الله شرها - شرع الرئيس أبو الفضل ابن العميد في بناء حائط عظيم دار مخدومه ركن الدولة، فقال له عارض الجيش: هذا كما يقال: الشد بعد الضراط، فقال ابن العميد: هذا أيضاً جيد، لئلا تنفلت أخرى، فاستحسن منه هذا الجواب.

وفيه يقول بعض أصحابه:

آل العميد وآل برمك ما لكم
قل المعين لكم وذل الناصر
كان الزمان يحبكم فبدا له
إن الزمان هو الخؤون الغادر

وتولى موضعه الصاحب ابن عباد - وقد تقدم ذكره في ترجمته فينظر هناك في حرف الهمزة.

وكان أبو الفتح المذكور قبل أن يقتل بمدة قد لهج بإنشاد هذين البيتين:

دخل الدنيا أناس قبلنا
رحلوا عنها وخلوها لنا

ونزلناهـــا كمـــا قـــد نزلـــوا

ونخليهـــا لقـــوم بعـــدنا

ومن المنسوب إلى أبي الفتح ابن العميد:

يقـول لـي الواشـون: كيـف تحبهـا

فقلـت لهـم: بـين المقصـر والغـالي

ولـولا حـذاري مـنهم لصـدقتهم

فقلـت: هـوى لم يهـوه قـط أمثـالي

وكـم مـن شـفيق قـال: مالـك واجمـا

فقلت: تـرى مـا بـي وتسـأل عـن حـالي

وكان أبو حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي قد وضع كتاباً سمّاه "مثالب الوزيرين" ضمنه معايب أبي الفضل ابن العميد المذكور والصاحب ابن عباد، وتحامل عليهما وعدد نقائصهما، وسلبهما ما اشتهر عنهما من الفضائل والإفضال، وبالغ في التعصب عليهما وما أنصفهما، وهذا الكتاب من الكتب المحدودة، ما ملكه أحد إلا وتعكست أحواله، ولقد جربت ذلك وجربه غيري على ما أخبرني من أثق به. وكان أبو حيان المذكور فاضلاً منصفاً له من الكتب المشهور الإمتاع والمؤانسة في مجلدين، وكتاب وكتاب البصائر والذخائر وكتاب الصديق والصداقة في مجلد واحد أيضاً وكتاب المقابسات في مجلد أيضاً، وكتاب "مثالب الوزيرين" في مجلد واحد أيضاً، وغير ذلك، وكان موجوداً في السنة الأربعمائة، ذكر في كتاب "الصديق والصداقة".

والتوحيدي: بفتح التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، ولم أر أحداً ممن وضع كتب الأنساب تعرض إلى هذه النسبة، لا السمعاني ولا غيره، لكن يقال: إن أباه كان يبيع التوحيد ببغداد، وهو نوع من التمر بالعراق، وعليه حمل بعض من شرح ديوان المتنبي قوله:

يترشفن من فمي رشفات
هن فيه أحلى من التوحيد

والله أعلم بالصواب.

الصاحب بن عباد (٣٨٥هـ)

الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن المعباس بن عباد بن أحمد ابن إدريس الطالقاني ؛ كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر في فضائله ومكارمه وكرمه، أخذ الأدب عن أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي صاحب كتاب " المجمل " في اللغة، وأخذ عن أبي الفضل بن العميد، وغيرهما.

وقال أبو منصور الثعالبي في كتابه اليتيمة في حقه: ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم، وفرده بالغايات في المحاسن، وجمعه أشتات المفاخر، لأن همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، وجهد وصفي يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه.

ثم شرع في شرح بعض محاسنه وطرف من أحواله.

وقال أبو بكر الخوارزمي في حقه: الصاحب نشأ من الوزراة في حجرها، ودب ودرج من وكرها، ورضع أفاويق درها، وورثها عن آبائه كما قال أبو سعيد الرستمي في حقه:

ورث الوزارة كابراً عن كابرٍ
موصَّلة الإسناد بالإسناد

يـــروي عـــن العبـــاس عبـــاد وزا
رتـــه وإسماعيـــل عـــن عبـــاد

وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء، لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقيل له: صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علماً عليه. وذكر الصابىء في كتاب التاجي أنه إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به، ثم سمي به كل من ولي الوزارة بعده.

وكان أولاً وزير مؤيد الدولة أبي منصور بويه بن ركن الدولة بن بويه الديلمي تولى وزارته بعد أبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد المذكور في ترجمة أبيه محمد، فلما توفي مؤيد الدولة في شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة بجرجان استولى على مملكته أخوه فخر الدولة أبو الحسن علي، فأقر الصاحب على وزارته، وكان مبجلاً عنده ومعظماً نافذ الأمر. وأنشده أبو القاسم الزعفراني يوما أبياتا نونية من جملتها:

أيـــا مـــن عطايـــاه تهـــدي الغنـــى
إلى راحتَـــي مـــن نـــأى أو دنـــا
كســـوت المقـــيمين والزائـــرين
كِســـا لم نخَـــل مثلـــها ممكنـــا
وحاشـــية الـــدار يمشـــون في
صـــنوف مـــن الخـــز إلا أنـــا

فقال الصاحب: قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني أن رجلاً قال له: احملني أيها الأمير! فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية، ثم قال: لوعلمت أن الله سبحانه وتعالى خلق مركوباً غير هذا لحملتك عليه، وقد أمرنا لك من الخَزِّ بِجُبَّةٍ وقميص وعمامة ودُراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس، ولو علمنا لباسا آخر يتخذ من الخز لأعطيناكه.

واجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره، ومدحوه بغُرر المدائح، وكان حسن الأجوبة [سريعها]، رفع الضرابون من دار الضرب إليه رقعة في مظلمة مترجمة بالضرابين، فوقع تحتها في حديد بارد. وكتب بعضهم إليه ورقة أغار فيها على رسائله وسرق جملة من ألفاظه فوقع فيها: هذه بضاعتنا ردت إلينا. وحبس بعض عماله في مكان ضيق بجواره، ثم صعد السطح يوماً فاطلع عليه فرآه فناداه المحبوس بأعلى صوته فاطلع فرآه في سواء الجحيم فقال الصاحب: اخسأوا فيها ولا تكلمون، ونوادره كثيرة.

وصنف في اللغة كتاباً سماه المحيط وهو في سبعة مجلدات، رتبه على حروف المعجم، كثر فيه الألفاظ وقلل الشواهد فاشتمل من اللغة على جزء متوفر، وكتاب الكافي في الرسائل وكتاب الأعياد وفضائل النيروز وكتاب الإمامة يذكر فيه فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويثبت إمامة من تقدمه، وكتاب الوزراء وكتاب الكشف عن مساوئ شعر المتنبي وكتاب أسماء الله تعالى وصفاته، وله رسائل بديعة ونظم جيد، فمنه قوله:

وشـــــــادنٍ جمالُـــــــــه
تقصـــــــر عنـــــــه صـــــفتي

أهـــــــوَى لتقبيــــــل يــــــدي
فقلــــــت قبِّــــــل شــــــفتي

وله في رقة الخمر:

رق الزجـــــاج ورقــــت الخمـــــر
وتشــــابها فتشــــاكل الأمـــــر

فكأنمـــــا خمـــــر ولا قــــدح
وكأنمـــــا قــــدح ولا خمـــــر

وله يرثي كثير بن أحمد الوزير وكنيته أبو علي:

يقولــون لــي أودى كـثير بـن أحمـدٍ
وذلــــك مــــرزوء علــــي جليـــــل

فقلــت دعــوني والعــلا تبكــه معــا
فمثــــل كـــثير في الرجــــال قليـــــل

وحكى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي أن نوح بن منصور أحد ملوك بني سامان كتب إليه ورقة في السر يستدعيه ليفوض إليه وزارته وتدبير أمر مملكته، فكان من جملة أعذاره إليه أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل، فما الظن بما يليق بها من التجمل.

وفي هذا القدر من اخباره كفاية.

وكان مولده لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سن ست وعشرين وثلثمائة بإصطخر، وقيل: بالطالقان، وتوفي ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة بالري، ثم نقل إلى أصبهان، رحمه الله تعالى، ودفن في قبة بمحلّة تعرف بباب دزيه، وهي عامرة إلى الآن، وأولاد بنته يتعاهدونها بالتبييض.

قال أبو القاسم بن أبي العلاء الشاعر الأصبهاني: رأيت في المنام قائلا يقول لي: لمّ لم ترث الصاحب مع فضلك وشعرك؟ فقلت: ألجمتني كثرة محاسنه فلم أدر بم أبدأ منها، وقد خفت أن أقصر وقد ظن بي الاستيفاء لها، فقال: أجز ما أقوله، فقلت: قل، فقال:

ثوى الجود والكافي معاً في حفيرة...

فقلت: ليأنس كل منهما بأخيه...

فقال: هما اصطحبا حيين ثم تعانقا...

فقلت: ضجيعين في لحدٍ بباب دزيه...

فقال: إذا ارتحل الشاوون عن مستقرهم...

فقلت: أقاما إلى يوم القيامة فيه...

ذكر هذا البياسي في حماسته.

ورأيت في أخباره أنه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان في حياته غير الصاحب فإنه لما توفي أغلقت له مدينة الري، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته، وحضر مخدومه فخر الدولة

المذكور أولا وسائر القواد وقد غيروا لباسهم، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياماً.

ورثاه أبو سعيد الرستمي بقوله:

أبعدَ ابن عباد يهش إلى السُرى
أخو أمل أو يستماح جواد
أبى الله إلا يموتا بموته
فما لهما حتى المعاد معاد

وتوفي والده أبو الحسن عباد بن العباس في سنة أربع - أو خمس - وثلاثين وثلثمائة، رحمه الله تعالى؛ وكان وزير ركن الدولة بن بويه، وهو والد فخر الدولة المذكور، ووالد عضد الدولة فناخسرو ممدوح المتنبي.

وتوفي فخر الدولة في شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، ومولده في سنة إحدى وأربعين وثلثمائة.

والطالقاني - بفتح الطاء المهملة وبعد الألف لام مفتوحة ثم قاف وبعد الألف الثانية نون - هذه النسبة إلى الطالقان، وهو اسم لمدينتين: إحداهما بخراسان والأخرى من أعمال قزوين، والصاحب المذكور أصله من طالقان قزوين، لا طالقان خراسان.

أبو الطاهر السرقُسطي (٤٥٥هـ)

أبو الطاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران الأنصاري المقرئ النحوي الأندلسي السرقسطي ؛ كان إماماً في علوم الآداب ومتقناً لفن القراءات، وصنف كتاب العنوان في القراءات، وعمدة الناس في الاشتغال بهذا الشأن عليه، واختصر كتاب الحجة لأبي علي الفارسي، وذكره أبو القاسم بن بشكوال في كتاب الصلة، وأثنى عليه، وعدَّد فضائله. ولم يزل على اشتغاله وانتفاع الناس به إلى أن توفي يوم الأحد مستهل المحرم سنة خمس وخمسين وأربعمائة رحمه الله تعالى.

والسرقسطي - بفتح السين المهملة والراء وضم القاف وسكون السين الثانية وبعدها طاء مهملة - هذه النسبة إلى مدينة في شرق الأندلس يقال لها سرقسطة من أحسن البلاد، وخرج منها جماعة من العلماء وغيرهم، وأخذها الفرنج من المسلمين في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة.

ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)

أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، الرومي الجنس والمولد، الحموي المولى، البغدادي الدار، الملقب شهاب الدين، أُسر من بلاده صغيراً، وابتاعه ببغداد رجل تاجر يُعرف بعسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي، وجعله في الكتاب، لينتفع به في ضبط تجائره، وكان مولاه عسكر لا يحسن الخط ولا يعلم شيئاً سوى التجارة، وكان ساكناً ببغداد، وتزوج بها، وأولد عدة أولاد، ولما كبر ياقوت المذكور قرأ شيئاً من النحو واللغة، وشغله مولاه بالأسفار في متاجره فكان يتردد إلى كيش وعمان وتلك النواحي ويعود إلى الشام. ثم جرت بينه وبين مولاه نبوة أوجبت عتقه فأبعده عنه، وذلك في سنة ست وتسعين وخمسمائة، فاشتغل بالنسخ بالأجرة، وحصلت له بالمطالعة فوائد، ثم إن مولاه بعد مديدة ألوى وأعطاه شيئاً وسفره إلى كيش[1]، ولما عاد كان مولاه قد مات، فحصل شيئاً مما كان في يده وأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم به، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله، وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً.

وكان متعصباً على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه،

---

[1] جزيرة في وسط البحر تُعَدُّ من أعمال فارس.

وكان قد طالع شيئاً من كتب الخوارج، فاشتبك في ذهنه منه طرف قوي، وتوجه إلى دمشق في سنة ثلاث عشرة وستمائة وقعد في بعض أسواقها، وناظر بعض من يتعصب لعلي رضي الله عنه، وجرى بينهما كلام أدى إلى ذكره علياً رضي الله عنه، بما لا يسوغ، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه، فسلم منهم، وخرج من دمشق منهزماً بعد أن بلغت القضية إلى والي البلد، فطلبه فلم يقدر عليه، ووصل إلى حلب خائفاً يترقب، وخرج عنها في العشر الأول أو الثاني من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة، وتوصل إلى الموصل. ثم انتقل إلى إربل وسلك منها إلى خراسان وتحامى دخول بغداد، لأن المناظر له بدمشق كان بغدادياً، وخشي أن ينقل قوله فيقتل، فلما انتهى أمره إلى خراسان أقام بها يتجر في بلادها، واستوطن مدينة مرو مدةً، وخرج عنها إلى أن نسا ومضى إلى خوارزم، وصادفه وهو بخوارزم خروج التتر، وذلك في سنة ست عشرة وستمائة، فانهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رمسه، وقاسى في طريقه من المضايقة والتعب ما كان يكل عن شرحه إذا ذكره، ووصل إلى الموصل وقد تقطعت به الأسباب، وأعوزه دنيء المأكل وخشن الثياب، أقام بالموصل مدةً مديدةً، ثم انتقل إلى سنجار وارتحل منها إلى حلب، وأقام بظاهرها في الخان، إلى أن مات في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ونقلت من " تاريخ إربل " الذي عُني بجمعه أبو البركات

بن المستوفي - المقدم ذكره - أن ياقوتاً المذكور قدم إربل في رجب سنة سبع عشرة وستمائة، وكان مقيماً بخوارزم، وفارقها للواقعة التي جري فيها بين التتر والسلطان محمد بن تكش خوارزم شاه.

وكان قد تتبع التواريخ، وصنف كتاباً سماه " إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء " يدخل في أربعة جلود كبار، ذكر في أوله قال: " وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين، والأخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط المنسوبة المعينة، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً أو جمع فيه تأليفاً، مع إيثار الاختصار والإعجاز في نهاية الإيجاز، ولم آل جهداً في إثبات الوفيات، وتبيين المواليد والأوقات، وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم، والإخبار بأنسابهم وشيء من أشعارهم، في ترادي إلى البلاد ومخالطتي للعباد، وحفت الأسانيد إلا ما قلَّ رجاله وقرب مناله، مع الاستطاعة إثباتها سماعاً وإجازة، إلا أنني قصدت صغر الحجم وكبر النفع، وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعول في هذا الشأن عليهم، والرجوع في صحة النقل إليهم ".

ثم ذكر أنه جمع كتاباً في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء. ومن تصانيفه أيضاً كتاب "معجم البلدان"، وكتاب "معجم

الشعراء"، وكتاب "معجم الأدباء"، وكتاب "المشترك وضعاً المختلف صقعاً" وهو من الكتب النافعة، وكتاب "المبدأ والمآل" في التاريخ، وكتاب "الدول" و"مجموع كلام أبي علي الفارسي" و"عنوان كتاب الأغاني"، و"المقتضب في النسب" يذكر فيه أنساب العرب، وكتاب "أخبار المتنبي".

وكانت له همة عالية في تحصيل المعارف.

وذكر القاضي الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني القفطي، وزير صاحب حلب كان رحمه الله تعالى في كتابه الذي سماه " إنباه الرواة على أنباه النحاة " أن ياقوتاً المذكور كتب إليه رسالةً من الموصل إليها هارباً من التتر، يصف فيها حاله وما جرى له معهم، وهي بعد البسملة والحمدلة: " كان المملوك ياقوت بن عبد الله الحموي قد كتب هذه الرسالة من الموصل في سنة سبع عشرة وستمائة، حين وصوله من خوارزم طريد التتر، أبادهم الله تعالى، إلى حضرة مالك رقه الوزير جمال الدين القاضي الأكرم أبي الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني، ثم التيمي تيم بني شيبان بن ثعلبة بن عكابة، أسبغ الله عليه ظله، وأعلى في درج السيادة محله، وهو يومئذ وزير صاحب حلب والعواصم، شرحاً لأحوال خراسان وأحواله، وإيماءً إلى بدء أمره بعد ما فارقه ومآله، وأحجم عن عرضها على رأيه الشريف إعظاماً وتهيباً، وفراراً من قصورها عن

طوله وتجنباً، إلى أن وقف عليها جماعة من منتحلي النظم والنثر، فوجدهم مسارعين إلى كتبها، متهافتين على نقلها، وما يشك أن محاسن مالك الرق حلتها، وفي أعلى درج الإحسان أحلتها، فشجعه ذلك على عرضها على مولاه، وللآراء علوها في تصفحها، والصفح عن زللها، فليس كل من لمس درهماً صيرفياً، ولا كل من اقتنى داراً جوهرياً. وها هي ذه: " بسم الله الرحمن الرحيم، أدام الله على العلم وأهليه، والإسلام وبنيه، ما سوغهم وحباهم، ومنحهم وأعطاهم، من سبوغ ظل المولى الوزير، أعز الله أنصاره، وضاعف مجده واقتداره، ونصر ألويته وأعلامه، وأجرى بإجراء الأرزاق في الآفاق أقلامه، وأطال بقاه، ورفع إلى عليين علاه، في نعمة لا يبلى جديدها، ولا يحصى عددها ولا عديدها، ولا ينتهي إلى غاية مديدها، ولا يفل حدها ولا حديدها، ولا يقل وادها ولا وديدها، وأدام دولته للدنيا والدين يلم شعثه، ويهزم كرثه، ويرفع مناره، ويحسن بحسن أثره آثاره، ويفتق نوره وأزهاره، وينير نواره، ويضاعف أنواره، وأسبغ ظله للعلوم وأهليها، والآداب ومنتحليها، والفضائل وحامليها، يشيد بمشيد فضله بنيانها، ويرصع بناصع مجده تيجانها، ويروض بيانع علائه زمانها، ويعظم بعلو همته الشريفة بين البرية شأنها، ويمكن في أعلى درج الاستحقاق إمكانها ومكانها، ويرفع بنفاذ الأمر قدره للدول الإسلامية والقواعد الدينية، يسوس قواعدها،

ويعز مساعدها، ويهين معاندها، ويعضد بحسن الإيالة معاضدها، وينهج بجميل المقاصد مقاصدها، حتى تعود بحسن تدبيره غرة في جبهة الزمان، وسنة يقتدي بها من طبع على العدل والإحسان، يكون له أجرها ما دام الملوان وكر الجديدان، وما أشرقت من الشرق شمس، وارتاحت إلى مناجاة حضرته الباهرة نفس".

"وبعد، فالمملوك ينهي إلى المقر العالي المولوي، والمحل الأكرم العلي - أدام الله سعادته مشرقة النور مبلغة السول، واضحة الغرر بادية الحجول - ما هو مكتف بالأريحية المولوية عن تبيانه، مستغنٍ بما منحتها من صفاء الآراء عن إمضاء قلمه لإيضاحه وبيانه، قد أحسبه ما وصف به عليه الصلاة والسلام المؤمنين، وإن من أمتي لمكلمين، وهو شرح ما يعتقده من الولاء، ويفتخر به من التعبد للحضرة الشريفة والاعتزاء، قد كفته الألمعية، عن إظهار المشتبه بالملق مما تجنه الطوية، لأن دلائل غلو المملوك في دين ولائه في الآفاق واضحة، وطبعة سكة إخلاص الوداد باسمه الكريم على صفحات الدهر لائحة، وإيمانه بشرائع الفضل الذي طبق الآفاق حتى أصبح بها بناء المكارم متين، وتلاوته لأحاديث المجد القريبة الأسانيد بالمشاهدة لديه مبين، ودعاء أهل الآفاق إلى المغالاة في الإيمان بإمامة فضله الذي تلقاه باليمين، وتصديقه بملة سؤدده الذي تفرد بالتوخي لنظم شارده وضم متبدده بعرق الجبين، حتى لقد

أصبح للفضل كعبة لم يفترض حجها على من استطاع إليها السبيل، ويقتصر بقصدها على ذوي القدرة دون المعتر وابن السبيل، فإن لكل منهم حظاً يستمده، ونصيباً يستعد به ويعتده، فللعظماء الشرف الضخم من معينه، وللعلماء اقتناء الفضائل من قطينه، وللفقراء توقيع الأمان من نوائب الدهر وغض جفونه، وفرضوا من مناسكه للجبهة الشريفة السلام والتبجيل، وللكف البسيطة الاستلام والتقبيل، وقد شهد الله تعالى للمملوك أنه في سفره وحضره، وسره وعلنه وخبره ومخبره، شعاره تعطير مجالس الفضلاء، ومحافل العلماء بفوائد حضرته، والفضائل المستفادة من فضلته، افتخاراً بذلك بين الأنام، وتطريزاً لما يأتي به في أثناء الكلام:

إذا أنا شرَّفت الورى بقصائدي
على طمع شرفت شعري بذكره

(يمنون عليك أن أسلموا، قل لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) (الحجرات: ١٧) لا حرمنا الله معاشر أوليائه مواد فضائله المتتالية، ولا أخلانا كافة عبيده من أياديه المتوالية، اللهم رب الأرض المدحية، والسموات العلية، والبحار المسجرة، والرياح المسخرة، اسمع ندائي، واستجب دعائي، وبلغنا في معاليه، ما نؤمله ونرتجيه، بمحمد النبي وصحبه وذويه.

وقد كان المملوك لما فارق الجناب الشريف، وانفصل عن

مقر العز اللباب والفضل المنيف، أراد استعتاب الدهر الكالح، واستدرار خلف الزمن الغشوم الجامح، اغتراراً بأن الحركة بركة، والاغتراب داعية الاكتساب، والمقام على الإقتار ذل وإسقام، وحلس البيت، في المحافل سُكَيت:

وقفت وقوف الشك ثم استمر بي
يقيني بأن الموت خير من الفقر
فودعت من أهلي وبالقلب ما به
وسرت عن الأوطان في طلب اليسر
وباكية للبين قلت لها اصبري
فللموت خير من حياة على عسر
سأكسب مالاً أو أموت ببلدةٍ
يقل بها فيض الدموع على قبري

فامتطى غارب الأمل إلى الغربة، وركب مركب التطواف مع كل صحبة، قاطعاً الأغوار والأنجاد، حتى بلغ السد أو كاد، فلم يصحب له دهره الحرون، ولا رق له زمانه المفتون:

إن الليالي والأيام لو سئلت
عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا

فكأنه في جفن الدهر قذى، أو في حلقه شجاً، يدافعه نيل الأمنية، حتى أسلمه إلى ربقة المنية:

لا يســـتقر بـــأرضٍ أو يســـير إلى
أخـرى بشـخصٍ قريـب عزمـه نـائي
يومـاً بحـزوى ويومـاً بـالعقيق ويـو
مـاً بالعـذيب ويومـاً بالحليصـاء
وتـارة ينتحـي نجـداً وآونـة
شـعب الحـزون وحينـا قصـر تيمـاء

وهيهات مع حرفة الأدب، بلوغ وطر أو إدراك أرب، ومع عبوس الحظ، ابتسام الدهر الفظ، ولم أزل مع الزمان في تفنيد وعتاب، حتى رضيت من الغنيمة بالإياب، والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزجيها، ويعلل المعيشة ويرجيها، متقنعا بالقناعة والعفاف، مشتملاً بالنزاهة والكفاف، غير راض بذلك السمل، ولكن مُكْره أخاك لا بطل[1]، متسلياً بإخوان قد ارتضى خلائقهم، وأمن بوائقهم، عاشرهم بالألطاف، ورضي منهم بالكفاف، لا خيرهم يرتجى، ولا شرهم يتقى:

إن كـان لابـد مـن أهـل ومـن وطـن
فحيـث آمـن مـن ألقـى ويـأمنني

قد زمَّ نفسه أن يستعمل طرفاً طماحاً، وأن يركب طرفاً جماحاً، وأن يلحف بيض طمع جناحاً، وأن يستقدح زنداً وارياً أو شحاحاً:

---

[1] مُكْرَهٌ أخوك لا بطل: هو مثل يضرب لمن يُحمل على ما ليس من شأنه.

وأدبـــني الزمـــان فـــلا أبـــالي
هجـــرت فـــلا أزار ولا أزور
ولســـت بقائـــل مـــا عشـــت يومـــاً
أســـار الجنـــد أم رحـــل الأمـــير

وكان المقام بمرو الشاهجان، المفسر عندهم بنفس السلطان، فوجد بها من كتب العلوم والآداب، وصحائف أولى الأفهام والألباب، ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل خل صفي وسكن، فظفر منها بضالته المنشودة، وبغية نفسه المفقودة، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص، وقابلها بمقام لا مَزمَع عنها ولا محيص، فجعل يرتع في حدائقها، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها، ويسرح طرفه في طرفها، ويتلذذ بمبسوطها ونتفها، واعتقد المقام بذاك الجناب، إلى أن يجاور التراب:

إذا مـــا الـــدهر بيـــتني بجـــيشٍ
طليعتـــه اغتمـــام واغـــتراب
شـــننتُ عليـــه مـــن جهـــتي كمينـــاً
أمـــيراه الذُبالـــة والكتـــاب
وبـــت أنـــص مـــن شـــيم الليـــالي
عجائـــب مـــن حقائقهـــا ارتيـــاب
بهـــا أجلـــو همـــومي مســـتريحاً
كمـــا جلّـــى همـــومهم الشـــراب

إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب، والويل المبير والتباب، وكانت لعمر الله بلاداً مونقة الرجاء، رائقة الأنحاء، ذات رياض أريضة، وأهوية صحيحة مريضة، قد تغنت أطيارها، فتمايلت طرباً أشجارها، وبكت أنهارها، فتضاحكت أزهارها، وطاب روح نسيمها، فصح مزاج إقليمها، ولعهدي بتلك الرياض الأنيقة، والأشجار المتهدلة الوريقة، وقد ساقت إليها أرواح الجنائب، زقاق خمر السحائب، فسقت مروجها مدام الطل، فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحل، فلما رويت من تلك الصهباء أشجاره، رنحها من النسيم خماره، فتدانت ولا تداني المحبين، وتعانقت ولا عناق العاشقين، يلوح من خلالها شقائق قد شابه اشتقاق الهوى بالعليل، فشابه شفتى غادتين دنتا للتقبيل، وربما اشتبه على التحرير بائتلاف الخمر، وقد انتابه رشاش القطر، ويُريه بهاراً يبهر ناضره، فيرتاح إليه ناظره، كأنه صنوج من العسجد، أو دنانير من الإبريز تنقد، ويتخلل ذلك أقحوان تخاله ثغر المعشوق إذا عض خد عاشق، فلله درُّها من نزهة رامق ولون وامق، وجملة أمرها أنها كانت أنموذج الجنة بلا مَين، فيها ما تشتهي النفس وتلذ العين قد اشتملت عليها المكارم، وارجحنت في أرجائها الخيرات الفائضة للعالم، فكم فيها من حبرٍ راقت حبره، ومن إمام توجت حياة الإسلام سيره، آثار علومهم على صفحات الدهر مكتوبة، وفضائلهم في محاسن الدنيا والدين محسوبة، وإلى كل قطرة

مجلوبة، فما من متين علم وقويم رأي إلا ومن شرقهم مطلعه، ولا من مغربة فضل إلا وعندهم مغربه وإليهم منزعه، وما نشأ من كرم أخلاق بلا اختلاق إلا وجدته فيهم، ولا أعراق في طيب أعراق إلا اجتليته من معانيهم، أطفالهم رجال، وشبابهم أبطال، مشايخهم أبدال، شواهد مناقبهم باهرة، ودلائل مجدهم ظاهرة، ومن العجب العجاب أن سلطانهم المالك، هان عليه ترك تلك الممالك، وقال لنفسه الهوى لك، وإلا فأنت في الهوالك، وأجفل إجفال الرال، وطفق إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً بل رجال: (كم تركوا من جناتٍ وعيون وزروعٍ ومقامٍ كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين) (الدخان: ٢٥ -٢٧) لكنه عز وجل لم يورثها قوماً آخرين، تنزيهاً لأولئك الأبرار عن مقام المجرمين، بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين، وبلاهم فألفاهم صابرين، فألحقهم بالشهداء الأبرار، ورفعهم إلى درجات المصطفين الأخيار (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (البقرة: ٢١٦) فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والإلحاد، وتحكم في تلك الأبشار أولو الزيغ والعناد، فأصبحت تلك القصور، كالمحو من السطور، وأمست تلك الأوطان مأوى الأصداء والغربان، تتجاوب في نواحيها البوم، وتتناوح في أراجيها الريح السموم، ويستوحش فيها الأنيس، ويرثي لمصابها إبليس:

كـأن لم يكـن فيهـا أوانـس كالـدُمى
وأقيـال ملـك في بسـالتهم أسـد
فمَـن حـاتم في وجـوده وابـن مامـة
ومَـن أحنـف إن عُـد حلـم ومَـن سـعد؟
تـداعى بهـم صـرف الزمـان فأصـبحوا
لنـا عـبرةً تـدمي الحشـا ولمـن بعـد

فإنا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر، وتهدم العمر، وتفتُّ في العضد، وتوهي الجلد، وتضاعف الكمد، وتشيب الوليد، وتنخب لب الجليد، وتسود القلب، وتذهل اللب، فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه، ناكساً، ومن الأوبة إلى حيث تستقر في النفس بالأمن آيساً، بقلب واجب، ودمع ساكب، ولُب عازب، وحلم غائب، وتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار، وابتلاء واصطبار، وتمحيص الأوزار، وإشراف غير مرة على البوار والتبار، لأنه مرَّ بين سيوف مسلولة، وعساكر مفلولة، ونظام عقود محلولة، ودماء مسكوبة مطلولة، وكان شعاره كلما علا قتبا، أو قطع سبسباً (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) (الكهف: ٦٢) فالحمد لله الذي أقدرنا على الحمد، وأولانا نعماً تفوت الحصر والعد، وجملة الأمر أنه لولا فسحة في الأجل، لعزَّ أن يقال سلم البائس أو وصل، ولصفق عليه أهل الوداد صفقة المغبون، وألحق بألف ألف ألف ألف هالك بأيدي الكفار أو يزيدون، وخلف خلفه جل ذخيرته، ومستمد معيشته:

تنكّـــر لـــي دهـــري ولم يـــدر أنـــني
أعـــز وأحـــداث الزمـــان تهـــونُ
وبـات يُـريني الخطـبَ كيـف اعتـداؤه
وبـــت أريـــه الصـــبر كيـــف يكـــون

وبعد، فليس للملوك ما يسلي به خاطره، ويعزي به قلبه وناظره، إلا التعلل بإزاحة العلل، إذا هو بالحضرة الشريفة مثل:

فاســـلم ودم وتمـــل العـــيش في دعـــة
ففـي بقائـك مـا يسـلي عـن السـلف
فأنـــت للمجـــد روح والـــورى جســـد
وأنـــت در فـــلا تأســـى علـــى الصـــدف

والمملوك الآن بالموصل مقيم، يعالج لما حزبه من هذا الأمر المقعد المقيم، يزجي وقته، ويمارس حرفته، وبخته يكاد يقول له باللسان القويم: (تالله إنك لفي ضلالك القديم) (يوسف: ٩٥) يذيب نفسه في تحصيل أغراض، هي لعمر الله أعراض، من صحف يكتبها، وأوراق يستصحبها، نصبه فيها طويل، واستمتاعه بها قليل، ثم الرحيل، وقد عزم بعد قضاء نهمته، وبلوغ بعض وطر قرونته أن يستمد التوفيق، ويركب سنن الطريق، عساه أن يبلغ أمنيته، من المثول بالحضرة، وإتحاف بصره من خلالها ولو بنظرة، ويُلقي عصا الترحال بفنائها الفسيح، ويقيم تحت ظل كنفها إلى أن يصادفه الأجل

المريح، وينظم نفسه في سلك مماليكها بحضرتها، كما ينتمي إليها في غيبتها، إن مدت السعادة بضبعه، وسمح له الدهر بعد الخفض برفعه، فقد ضعفت قواه عن درك الآمال، وعجز عن معاركة الزمان والنزال، إذ ضمت البسيطة إخوانه، وحجب الجديدان أقرانه، ونزل المشيب بعذاره، وضعفت منة أوطاره، وانقضَّ باز على غراب شبابه فقنصه، وأكب نهار الحلم على ليل الجهل فوقصه، وتبدلت محاسنه عند أحبابه مساوي وخصصه، واستعاض من حلة الشباب القشيب، خلق الكبر والمشيب:

وشباب بان مني وانقضى
قبل أن أقضي منه أربي
ما أرجى بعده إلا الفن
ضيق الشيب علي مطلبي

ولقد ندب المملوك أيام الشباب بهذه الأبيات، وما أقل غناء الباكي على من عدَّ في الرفات:

تنكَّر لي مذ شبت دهري وأصبحت
معارفه عندي من النكرات
إذا ذكرتها النفس حنت صبابةً
وجادت شؤون العين بالعبرات
إلى أن أتى دهر يحسِّن ما مضى
ويوسعني تذكاره حسرات

فكيف ولم يبق من كاس مشربي
سوى جُرَع في قعره كدرات
وكل إناء صفوه في ابتدائه
وفي القعر مزجاً حمأةٍ وقذاة

والمملوك يتيقن أنه لا ينفق هذا الهذر الذي مضى، إلا النظر إليه بعين الرضا، ولرأي المولى الوزير الصاحب، كهف الورى في المشارق والمغارب، فيما يلاحظه منه بعادة مجده، مزيد مناقب ومراتب، والسلام.

ولقد طالت هذه الترجمة بسبب طول الرسالة، ولم يمكن قطعها.

وقال صاحبنا الكمال بن الشعار الموصلي في كتاب " عقود الجمان ": أنشدني أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي صاحب " تاريخ بغداد " قال: أنشدني ياقوت المذكور لنفسه في غلامٍ تركي قد رمدت عينه وعليها وقاية سوداء:

ومولدٍ للترك تحسب وجهه
بدراً يضيء سناه بالإشراق
أرخى على عينيه فضل وقاية
ليرد فتنتها عن العشاق
تالله لو أن السوابغ دونها
نفذت فهل لوقايةٍ من واق

وكانت ولادة ياقوت المذكور في سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة، ببلاد الروم، هكذا قاله. وتوفي يوم الأحد العشرين من شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة، في الخان بظاهر مدينة حلب، حسبما قدمنا ذكره في أول الترجمة، رحمه الله تعالى.

وكان قد وقف كتبه على مسجد الزيدي الذي بدرب دينار ببغداد، وسلمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير، فحملها إلى هناك. ولما تميز ياقوت المذكور واشتهر سمى نفسه "يعقوب".

وقدمت حلب للاشتغال بها في مستهل ذي القعدة سنة وفاته، ذلك عقيب موته، والناس يثنون عليه ويذكرون فضله وأدبه. ولم يقدر لي الاجتماع به.

الشعراء وأصحاب القريض

أبو تمام (٢٣١هـ)

أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى بن مروان بن مر بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدي بن عمرو بن الغوث بن طيىء - واسمه جلهمه - بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان الشاعر المشهور ؛ [وذكر أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي في كتاب " الموازنة بن الطائيين " ما صورته : والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام : أن أباه كان نصرانياً من أهل جاسم، قرية من قرى دمشق، يقال له : تدوس العطار، فجعلوه أوساً، وقد لفقت له نسبة إلى طيىء، وليس فيمن ذكر فيها من الآباء من اسمه مسعود، وهذا باطل ممن عمله، ولو كان نسبه صحيحاً لما جاز أن يلحق طيئاً بعشرة آباء.

قلت : وذكر الآمدي هذا في قول أبي تمام :

إن كان مسعود سقى أطلالهم

سبل الشؤون فلست من مسعود

وقد سقط في النسب بين قيس ودفاقة ستة آباء.

وقول أبي تمام : "فلست من مسعود"، لا يدل على أن مسعوداً من آبائه بل هذا كما يقال : "ما أنا من فلان ولا فلان

مني"، يريدون به البعد منه والأتفة، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ولد الزنا ليس منا)، و(علي مني وأنا منه).

وقد ساق الخطيب أبو بكر في "تاريخ بغداد" نسبه، وفيه تغيير يسير.

وقال الصولي: قال قوم: إن أبا تمام هو حبيب بن تدوس النصراني، فغير، فصار أوساً.

كان أوحد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه، وله كتاب "الحماسة" التي دلت على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن اختياره، وله مجموع آخر مسماه "فحول الشعراء"، جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين، وله كتاب "الاختيارات من شعر الشعراء"، وكان له من المحفوظ ما لا يلحقه فيه غيره، قيل: إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع، ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم، وجاب البلاد، وقصد البصرة وبها عبد الصمد بن المعذل الشاعر، فلما سمع بوصوله - وكان في جماعة غلمانه وأتباعه - فخاف من قدومه أن يميل الناس إليه ويعرضوا عنه، فكتب إليه قبل دخوله البلد:

أنت بين اثنتين تبرز للنا
س وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك راجياً لوصال
من حبيب أو طالباً لنوال

أي مـــاء يبقـــى لوجهـــك هـــذا

بـــين ذل الهـــوى وذل الســـؤال

فلما وقف على الأبيات أضرب عن مقصده ورجع، وقال: قد شغل هذا ما يليه فلا حاجة لنا فيه. وقد ذكرت نظير هذه الأبيات في ترجمة المتنبي في حرف الهمزة.

ولما قال ابن المعذل هذه الأبيات في أبي تمام، كتبها ودفعها إلى ورّاق كان هو وأبو تمام يجلسان إليه ولا يعرف أحدهما الآخر، وأمر أن تدفع إلى أبي تمام، فلما وافى أبو تمام وقرأها قلبها وكتب:

أفي تـــنظم قـــول الـــزور والفنـــد

وأنـــت أنقـــص مـــن لا شـــيء في العـــدد

أشـرجت قلبـك مـن غـيظ علـى حنـق

كأنهـــا حركـــات الـــروح في الجســـد

أقـدمت ويلـك مـن هجـوي علـى خطـر

كـالعير يقـدم مـن خـوف علـى الأسـد

حضر عبد الصمد، فلما قرأ البيت الأول وقال: ما أحسن علمه بالجدل، أوجب زيادةً ونقصاناً على معدوم، ولما نظر إلى البيت الثاني قال: الإشراج من عمل الفراشين ولا مدخل له ههنا، فلما قرأ البيت الثالث عضَّ على شفته، وقال: قتل.

وقال الصولي: قد ذكر ذلك أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم في كتاب "المصايد والمطارد"، عند قوله فيه:

وأغفل الجاحظ في باب ذكر انقياد بعض المأكولات لبعض الآكلات ذكر الحمار الذي يرمي بنفسه على الأسد إذا شم ريحه].

ولما أنشد أبو تمام أبا دلف العجلي قصيدته البائية المشهورة التي أولها:

على مثلها من أربع وملاعب
أذيلت مصونات الدموع السواكب

استحسنها وأعطاه خمسين ألف درهم، وقال له: والله! إنها لدون شعرك، ثم قال له:

والله ما مثل هذا القول في الحسن إلا ما رثيت به محمد بن حميد الطوسي، فقال أبو تمام: وأي ذلك أراد الأمير قال: قصيدتك الرائية التي أولها:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وددت والله أنها لك في، فقال: بل أفدي الأمير بنفسي وأهلي وأكون المقدم قبله، فقال: إنه لم يمت من رثي بهذا الشعر.

وقال العلماء: خرج من قبيلة طيىء ثلاثة، كل واحد مجد في بابه: حاتم الطائي في جوده، وداود بن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام حبيب بن أوس في شعره.

وأخباره كثيرة ورأيت الناس مطبقين على أنه مدح الخليفة بقصيدته السينية، فلما انتهى فيها إلى قوله:

إقـــدام عمـــرو في سماحـــة حـــاتم
في حلـــم أحنـــف في ذكـــاء إيـــاس

قال له الوزير: أتشبه أمير المؤمنين بأجلاف العرب، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وأنشد:

لا تنكـــروا ضـــربي لـــه مـــن دونـــه
مـــثلاً شـــروداً في النـــدى والبـــأس
فـــالله قـــد ضـــرب الأقـــل لنـــوره
مـــثلاً مـــن المشـــكاة والنـــبراس

فقال الوزير للخليفة: أي شيء طلبه فأعطه، فإنه لا يعيش أكثر من أربعين يوماً، لأنه قد ظهر في عينيه الدم من شدة الفكر، وصاحب هذا لا يعيش إلا هذا القدر، فقال له الخليفة: ما تشتهي؟ قال: أريد الموصل، فأعطاه إياها، فتوجه إليها، وبقي هذه المدة ومات؛ وهذه القصة لا صحة لها أصلاً.

وقد ذكر أبو بكر الصولي في كتاب "أخبار أبي تمام"، أنه لما أنشد هذه القصيدة لأحمد بن المعتصم وانتهى إلى قوله: إقدام عمرو - البيت المذكور - قال له [أبو يوسف يعقوب بن الصباح] الكندي الفيلسوف، وكان حاضراً: الأمير فوق من وصفتَ، فأطرق قليلاً ثم زاد البيتين الآخرين، ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين، فعجبوا من سرعته وفطنته.

ولما خرج قال أبو يوسف، وكان فيلسوف العرب: هذا

الفتى يموت قريباً. ثم قال بعد ذلك: وقد روي هذا على خلاف ما ذكرته، وليس بشيء، والصحيح هو هذا.

وقد تتبعتها وحققت صورة ولايته للموصل، فلم أجد سوى أن الحسن بن وهب ولاه يريد الموصل، فأقام بها أقل من سنتين ثم مات بها. والذي يدل على أن القضية ليست صحيحة أن هذه القصيدة ما هي في أحد من الخلفاء، بل مدح بها أحمد بن المعتصم، وقيل: أحمد بن المأمون، ولم يل واحد منهما الخلافة، والحيص بيص ذكر في رقاعة السبع اللاتي كتبها إلى الامام المسترشد يطلب منه بايعقوبا[1] أن الموصل كانت إجازة لشاعر طائي، فإما أنه بنى الأمر على ما قاله الناس من غير تحقيق، أو قصد أن يجعل هذا ذريعةً لحصول بايعقوبا له، والله أعلم [وتابعه في الغلط ابن دحية في كتاب " النبراس "].

[وذكر الصولي أن أبا تمام لما مدح محمد بن عبد الملك الزيات الوزير بقصيدته التي منها قوله:

ديمة سمحة القياد سكوب
مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى
لسعى نحوها المكان الجديب

قال له ابن الزيات: يا أبا تمام! إنك لتحلي شعرك من جواهر

---

[1] مدينة من مُدُن العراق القديمة.

لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بهي الجواهر في أجياد الكواعب، وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازاة. وكان بحضرته فيلسوف، فقال له: إن هذا الفتى يموت شاباً، فقيل له: ومن أين حكمت عليه بذلك؟ فقال: رأيت فيه من الحدة والذكاء والفطنة مع لطافة الحس وجودة الخاطر ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده، وكذا كان، لأنه مات وقد نيف على ثلاثين سنة.

قلت: وهذا يخالف ما سيأتي في تاريخ مولده ووفاته بعد هذا إن شاء الله تعالى].

ولم يزل شعره غير مرتب حتى جمعه أبو بكر الصولي، ورتبه على الحروف، ثم جمعه علي بن حمزة الأصبهاني، ولم يرتبه على الحروف، بل على الأنواع.

وكانت ولادة أبي تمام سنة تسعين ومائة، وقيل: سنة ثمان وثمانين ومائة، وقيل: سنة اثنتين وسبعين ومائة بجاسم، وهي قوية من بلد الجيدور من أعمال دمشق بين دمشق وطبرية، ونشأ بمصر، قيل: إنه كان يسقي الناس ماءً بالجرة في جامع مصر، وقيل: كان يخدم حائكاً ويعمل عنده [بدمشق وكان أبوه خماراً بها، وكان أبو تمام أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة] ثم اشتغل وتنقل إلى أن صار منه ما صار.

وتوفي بالموصل - على ما تقدم - في سنة إحدى وثلاثين.

ومائتين، وقيل: إنه توفي في ذي القعدة، وقيل في جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين، وقيل: تسع وعشرين ومائتين، وقيل: في المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، رحمه الله تعالى.

[قال البحتري: وبنى عليه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة، ورأيت قبره بالموصل خارج باب الميدان، على حافة الخندق، والعامة تقول: هذا قبر تمام الشاعر.

وحكى لي الشيخ عفيف الدين أبو الحسن علي بن عدلان الموصلي النحوي المترجم، قال: سألت شرف الدين أبا المحاسن محمد بن عنين الشاعر - الآتي ذكره في هذا الكتاب في حرف الميم إن شاء الله تعالى - عن معنى قوله:

سقى الله دوح الغوطتين ولا ارتوت

من الموصل الحدباء إلا قبورها

لمَ حرمها وخص قبورها؟ فقال: لأجل أبي تمام.

وهذا البيت من قصيدة لابن عنين المذكور يمدح بها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل بن أيوب - وسيأتي ذكره في حرف العين إن شاء الله تعالى - أولها:

أشاقك من عليا دمشق قصورها

وولدان أرض النيربين وحورها

وهي من أحسن قصائده].

ورثاه الحسن بن وهب بقوله:

فجـــع القـــريض بخـــاتم الشـــعراء
وغـــدير روضـــتها حبيـــب الطـــائي
ماتـــا معـــاً فتجـــاورا في حفـــرة
وكـــذاك كانـــا قبـــل في الأحيـــاء

وقيل: إن هذين البيتين لديك من رثى بهما أبا تمام، والله أعلم.

[ورثاه الحسن أيضاً بقوله من قصيدة:

ســـقى بالموصـــل القـــبر الغريبـــا
ســـحائب ينـــتحبن لـــه نحيبـــا
إذا أظللنـــه أظللـــن فيـــه
شـــعيب المـــزن يتبعهـــا شـــعيبا
ولطَّمـــنْ الـــبروق بـــه خـــدوداً
وشـــققن الرعـــود بـــه جيوبـــا
فـــإن تـــراب ذاك القـــبر يحـــوي
حبيبـــاً كـــان يـــدعى لـــي حبيبـــا]

ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم بقوله وهو يومئذ وزير، وقيل: إنهما لأبي الزبرقان عبد الله بن الزبرقان الكاتب مولى بني أمية:

نبـــأ أتـــى مـــن أعظـــم الأنبـــاء
لمـــا ألم مقلقـــل الأحشـــاء

قـــالوا حبيـــب قـــد نـــوى فـــأجبتهم

ناشـــــدتكم لا تجعلـــــوه الطـــــائي

ولأبي تمام المذكور:

لـــو يعلـــم الـــركن مـــن قـــد جـــاء يلثمـــه

لظـــل يلـــثم منـــه مـــوطئ القـــدم

وللبحتري أيضاً في هذا المعنى:

ولـــو أن مشـــتاقاً تكلّـــف فـــوق مـــا

في وســـعه لســـعى إليـــك المنـــبر

ولما سار المأمون إلى بلاد الشام يريد غزو الروم مدحه أبو تمام بقصيدتين فلم يجد من يوصلهما إليه، وذلك قبل قدوم أبي تمام العراق، ثم صار إلى العراق في خلافة المعتصم، فمن ذلك قوله في المأمون قصيدة قال فيها:

ثـــم انـــبرت أيـــام عجـــر أردفـــت

نحـــوي أســـى فكأنهـــا أعـــوام

ثـــم انقضـــت تلـــك الســـنون وأهلـــها

فكأنهـــــا وكـــــأنهم أحـــــلام

فأخذها حتى بلغ فيها:

اتضعضـــعت عـــبرات عينـــك أن دعـــت

ورقـــاء حـــين تضعضـــع الإظـــلام

لا تشـــجين لهـــا فـــإن بكاءهـــا
ضـــحك وإن بكـــاءك اســـتغرام
هـــن الحمـــام فـــإن كســـرت عيافـــة
مـــن حـــائهن فـــإنهن حمـــام

حُكي عن يموت بن المزرع قال: كان أحمد بن المدبر إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره أمر غلمانه أن يمضوا به إلى المسجد فلا يفارقوه أو يصلي مائة ركعة، فكان هذا دأبه؛ قال: فتحاماه الشعراء إلاّ الأفراد المجيدين فأتاه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجعل فاستأذنه في النشيد فقال له: عرفت الشرط قال: نعم، فأنشده:

أردنـــا في أبـــي حســـن مـــديحاً
كمـــا بالمـــدح تُنتجـــع الـــولاة
فقلنـــا أكـــرم الـــثقلين طـــراً
ومـــن كفـــاه دجلـــة والفـــرات
فقـــالوا يقبـــل المـــدحات لكـــن
جـــوايزه علـــيهن الصـــلاة
فقلـــت لهـــم ومـــا يغـــني عيـــالي
صـــلاتي، إنمـــا الشـــأن الزكـــاة
فيـــأمرني بكســـر الصـــاد منـــه
فتصـــبح لـــي الصـــلاة هـــي الصـــلات

فضحك ابن المدبر وقال: من أين أخذت هذا ومن أين وقع لك؟ فقال: أخذته من قول أبي تمام:

هـــن الحمـــام فـــإن كســـرت عيافـــة
مـــن حـــائهن فـــإنهن حمـــام

قال: فأعجبه صدقه ووصله.

ومن قصيدته الأخرى التي مدح بها المأمون التي أولها:

كُشِف الغطاء فأوقدي أو أخمدي...

ويقول فيها:

أولـــي أمـــة أحمـــد مـــا أحمـــد
بمضـــيع مـــا أوليـــتَ أمـــة أحمـــد

أمـــا الهـــدى فقـــد اقتـــدحت بزنـــده
للعـــالمين فويـــل مـــن لا يهتـــدي

حدث الصولي عن محمد بن يحيى قال: حدثني يحيى بن علي قال: كان محمد بن القاسم بن مهرويه يقدم دعبلاً على أبي تمام، فقلت له: بأي شيء قدمته فلم يأت بمقنع، فجعلت أنشده محاسنهما فإذا محاسن أبي تمام أكثر وأطرز، وإذا عيوب دعبل أعظم وأفحش، فأقام على رأيه وتعصبه لدعبل فقلت:

يـــا أبـــا جعفـــر أتحكـــم في الشعـــ
ـــر ومـــا فيـــك آلـــة الحكـــام

إن نقـــد الـــدينار إلا علـــى الصـــ

ـــرف صـــعب فكيـــف نقـــد الكـــلام

قـــد رأينـــاك لـــيس تفـــرق في الأشـــ

ـــــعار بـــــين الأرواح والأجســـــام

إنمـــا يعـــرف العتيـــق مـــن المحـــ

ـــدث قـــين في وقـــت عـــرض الحســـام

لا تقـــــس دعـــــبلاً إذن بحبيـــــب

لـــيس خـــف الـــبعير مثـــل الســـنام

قال عبد الله بن المعتز: جاءني محمد بن يزيد النحوي فجرى ذكر أبي تمام فلم يوفه حقه، فقال له رجل من الكتاب كان في المجلس: ما رأيت أحداً أحفظ لشعر أبي تمام منه: يا أبا العباس! ضع يدك على من شئت من الشعراء ثم انظر أيحسن أن يقول مثل ما قاله أبو تمام لأبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي يعتذر إليه:

لعمـــري لقـــد أقـــوت مغـــانيكم بعـــدي

ومحـــت كمـــا محـــت وشـــائع مـــن بـــرد

وأنجـــدتم مـــن بعـــد إتهـــام داركـــم

فيـــا دمـــع أنجـــدني علـــى ســـاكني نجـــد

ثم مرَّ فيها حتى بلغ إلى قوله في الاعتذار:

أتـــاني مـــع الركبـــان ظـــن ظننتـــه

لففـــت لـــه رأســـي حيـــاءً مـــن المجـــد

كـريم متـى أمدحـه أمدحـه والـورى

معـي ومتـى مـا لمتـه لمتـه وحـدي

حدث الصولي قال: كان أبو تمام إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه كأنه قد علم ما يقول فأعد جوابه، فقال له رجل: يا أبا تمام! لم لا تقول من الشعر ما يعرف فقال: وأنت لم لا تعرف من الشعر ما يقال فأفحمه. وكان الذي قال له هذا أبو سعيد الضرير بخراسان، وكان هذا من علماء الناس وكان متصلاً بالطاهرية.

قال علي بن محمد بن عبد الكريم: لما صار إلينا أبو تمام مقدمه من مصر عمل قصيدته التي أولها:

أرامةُ كنتِ مألفَ كل ريم...

فاتصل خبرها بعتبة بن عُصيم الذي يهجوه أبو تمام، وهو كلبي من قضاعة، وكان أديباً شاعراً، فأحب أن يسمع هذه القصيدة من أبي تمام فقال لمن حضر: ايتوني به، فجاءوا به فأنشده إياها، فلما فرغ قال: أحسنت يا غلام! على صغر سنك، فسكت أبو تمام وقال: يا عم! أنشدني من شعرك، فأنشده قصيدة، فلما فرغ قال: يا عم! ما أحسنت على كبر سنك، فقال عتبة لبني عبد الكريم: أخرجوا هذا من بلدنا فليس يصلح أن يقيم في بلدنا.

قال الصولي: ومن باب الجود قول أبي تمام:

بـيمن أبـي إسـحاق طالـت يـد الهـوى

وقامـت قنـاة الـدين واشـتد كاهلـه

هــو البحــر مــن أي النــواحي أتيتــه
فلجتــه المعــروف والجــود ســاحله
تعــوَّد بســطَ الكــف حتــى لــو أنــه
دعاهــا لقــبض لم تجبــه أناملــه

وللبحتري في هذا المعنى:

لا يُتعــب النائــلُ المبــذول همتَــه
وكيــف يتعــب عــين النــاظر النظــر

وهذان البيتان لا غاية وراءهما.

قال ابن أبي داود لأبي تمام: إن لك أبياتاً أنشدتها فلو قلتها زاهداً أو معتبراً أو حاثاً على طاعة الله تعالى لكنت قد أحسنت وبالغت، فأنشدنيها، قال: ما هي؟ قال: التي قافيتها: "فأدخلها"، فأنشده:

مــا لــي أرى الحجــرة الفيحــاء مقفلــة
عــني وقــد طــال مــا استفتحت مقفلــها
كأنهــا جنــة الفــردوس معرضــة
ولــيس لــي عمــل زاكٍ فأدخلــها

حدث الصولي قال: دخل أبو تمام على أحمد بن أبي داود فقال له: ما أحسن هذا! فمن أين أخذته؟ قال: من قول الحاذق في الفضل بن الربيع:

ولــــيس لله بمســــتنكر
أن يجمــــع العــــالم في واحــــد

وحدث الصولي عن الحسن بن وهب قال: لما أدخل المازيار على المعتصم وكان عليه شديد الغيظ قيل له: لا تعجل عليه فإن عنده أموالاً جمة، فأنشد بيت أبي تمام:

إن الأسـود أسـود الغـاب همتهـا

يـوم الكريهـة في المسـلوب لا السـلب

ثم قتله؛ وكذلك جمال الدين بن رشيق أفتى ببيت المتنبي في النصراني الذي سب رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما ولي الملك الصالح مصر وهو:

لا يسـلم الشـرف الرفيـع مـن الأذى

حتـى يُـراق علـى جوانبـه الـدم

فعمل بمقتضاه.

وحدث علي بن يحيى بن علي بن مهدي قال: كان المنجمون حكموا لما خرج المعتصم إلى الروم بأنه لا يرجع من وجهه، فلما فتح ما فتح وخرَّب عمورية في شهر رمضان سنة ٢٢٣هـ وانصرف سالماً، قال أبو تمام:

السـيف أصـدق إنبـاء مـن الكتـب

في حـده الحـد بـين الجـد واللعـب

بـيض الصـفائح لا سـود الصـحائف في

متـونهن جـلاء الشـك والريـب

والعلـــم في شُـــهُب الأرمـــاح لامعـــةً

بـــين الخميســـين لا في الســـبعة الشـــهب

وقيل: إنه كرر إنشاد هذه القصيدة ثلاثة أيام فقال له المعتصم: لمَ تجلو علينا عجوزك؟ قال: حتى أستوفي مهرها يا أمير المؤمنين! فأمر له بمائة وسبعين ألف درهم عن كل بيت منها ألف.

قال الحسن بن وهب: دخل أبو تمام على محمد بن عبد الملك الزيات فأنشده قصيدته التي أولها:

لهـــان علينـــا أن نقـــول وتفعـــلا

فلما بلغ إلى قوله:

ووالله لا آتيـــــك إلاَّ فريضـــــة

وآتـــي جميـــع العـــالمين تـــنفلا

ولـيس امـرءاً في النـاس كنـت سـلاحه

عشـــية يلقـــى الحادثـــات بـــأعزلا

فقال: أما والله ما أحب بمدحك مدح غيرك لتجويدك وإبداعك، ولكن تنقص مدحك ببذلك له لغير مستحقه، فقال: لسان العذر معقول وإن كان فصيحاً، ومرَّ في القصيدة فأمر له بخمسة آلاف درهم، وكتب إليه بعد ذلك:

رأيتـــك ســـهل البيـــع سمحـــاً وإنمـــا

يغـــالي إذا مـــا ضـــن بالشـــيء بايعـــه

فأمـــا الـــذي هانـــت بضـــائع بيعـــه
فيوشـــك أن تبقـــى عليـــه بضـــايعه

فأجابه أبو تمام:

أبـــا جعفـــر إن كنـــت أصـــبحت تـــاجراً
أســـاهل في بيعـــي لـــه مـــن أبايعـــه
فقـــد كنـــتَ قبلـــي شـــاعراً تـــاجراً بـــه
تســـاهل مـــن عـــادت عليـــك منافعـــه

قال الصولي: لما كلم خالد بن يزيد ابن أبي دواد في أمر أبي تمام قال أبو تمام يشكره:

لأشـــكرنك إن لم أوت مـــن أجلـــي
شـــكراً يوافيـــك عـــني آخـــر الأبـــد
وإن تـــوردت مـــن بحـــر البحـــور نـــدى
فلـــم أنـــل منـــه إلا غرفـــةً بيـــدي

قال محمد بن يزيد النحوي: خرج أبو تمام إلى خالد بن يزيد وهو بأرمينية فامتدحه فأمر له بعشرة آلاف درهم ونفقة لسفره وأمره أن لا يقيم إن كان عازماً على الخروج، فودعه ومضت عليه أيام فركب يزيد ليتصيد فرآه تحت شجرة وقدامه زكرة فيها نبيذ، وغلام بيده طنبور فقال: حبيب قال: خادمك وعبدك، فقال له: ما فعل المال؟ فقال:

علمـــني جـــودك الســـماح فمـــا
أبقيـــت شـــيئاً لـــدي مـــن صـــلتك

مـــا مـــرَّ شـــهر حتـــى سمحـــت بـــه
كـــأن لـــي قـــدرة كمقـــدرتك
تنفـــق في اليـــوم بالهبـــات وفي
الســـاعة مـــا تجتبيـــه في ســـنتك
فلســـت أدري مـــن أيـــن تنفـــق لـــو
لا أن ربـــي يمـــد في هبتـــك

فأمر له بعشرة آلاف درهم أخرى فأخذها وانصرف.

ولأبي تمام وقد اعتلَّ إلياس صاحب عبد الله بن طاهر:

فـإن يكـن وصـب قاسـيتَ سَـورته
فـالوِرد حلـف لليـث الغابـة الأضـم[1]
إن الريـاح إذا مـا أعصـفت قصـفت
عيـدان نجـد ولم يعبـأن بـالرتم[2]
بنـات نعـش ونعـش لا كسـوف لهـا
والشمس والبدر منها الدهر في الرقم[3]
فليهنـك الأجـر والنعمـى الـتي سـبغت
حتـى جلـت صـدأ الصمصـامة الخـذم

---

[1] الأضم: الغضبان.
[2] الرتم: نبات دقيق جداً كالخيط.
[3] الرقم: الداهية.

قـد يـنعم الله بـالبلوى وإن عظمـت

ويبتلـي الله بعـض القـوم بـالنعم

قال محمد بن هبيرة النحوي: حجب أبو تمام عن إسحاق بن إبراهيم المصعبي فقال:

يـا أيهـا الملـك المرجـو نائلـه

وجـوده لمراعـي جـوده كنـب

لـيس الحجـاب بمقـصٍ عنـك لـي أمـلاً

إن السـماء ترجـى حـين تحتجـب

قيل لأبي تمام: قد هجاك مخلد الموصلي فلو هجوته؟ قال: الهجاء يرفع منه إذ ليس هو شاعراً؛ لو كان شاعراً لم يكن من الموصل، يعني أن الموصل لا يخرج منها شاعر، وكان مخلد قد هجاه بقوله:

يـا نـبي الله في الشعـ

ـر ويـا عيسـى بـن مـريم

أنـت مـن أشـعر خلـق اللـ

ـه مـا لم تـتكلم

وكان لأبي تمام حُبسة إذا تكلم. قرأت في كتاب المستنير أن أبا تمام والخثعمي اجتمعا في مجلس أنس، فقام أبو تمام إلى الخلاء فقال له الخثعمي: ندخلك؟ قال: نعم وأخرجك، فتعجب الحاضرون من هذا الابتداء البديع والجواب العجيب.

وكان لأبي تمام صديق قليل البضاعة في الشرب يسكر من قدحين، فكتب إليه يوماً يدعوه:

إن رأيت أن تنام عندنا فافعل.

ودخل على جعفر بن سليمان يعزيه بأخيه محمد بن سليمان وقد كان جزع عليه جزعاً عظيماً، فقال جعفر حين رآه: إن يكن عند أحد فرج فعند حبيب، فلما سلم قال: أيها الأمير! التمس ثواب الله بحسن الجزاء والتسليم لأمر الله، واذكر مصيبتك في نفسك تنسك مصيبتك في غيرك والسلام].

ومحاسن حبيب كثيرة.

وجاسم: بفتح الجيم وبعد الألف سين مهملة مكسورة ثم ميم.

وأما النسب فهو مشهور فلا حاجة إلى ضبطه.

والجيدور - بفتح الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الدال المهملة وسكون الواو وبعدها راء - وهو إقليم من عمل دمشق يجاور الجولان.

والطائي: منسوب إلى طيىء القبيلة المشهورة، وهذه النسبة على خلاف القياس، فإن قياسها طيئي، لكن باب النسب يحتمل التغيير، كما قالوا في النسبة إلى الدهر دهري وإلى سهل سهلي - بضم أولهما - وكذلك غيرهما.

البحتري (٢٨٤هـ)

أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شملال بن جابر بن سلمة بن مسهر بن الحارث بن خيثم بن أبي حارثة بن جدي بن تدول بن بحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جلهمة، وهو طيء بن أدد بن زيدان بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، الطائي البحتري الشاعر المشهور، وُلد بمنبج، وقيل: بزردفنة وهي قرية من قراها، ونشأ وتخرج بها، ثم خرج إلى العراق ومدح جماعةً من الخلفاء أولهم المتوكل على الله، وخلقاً كثيراً من الأكابر والرؤساء، وأقام ببغداد دهراً طويلاً ثم عاد إلى الشام، وله أشعار كثيرة ذكر فيها حلب وضواحيها، وكان يتغزل بها، وقد روى عنه أشياء من شعره أبو العباس المبرد ومحمد بن خلف بن المرزبان والقاضي أبو عبد الله المحاملي ومحمد بن أحمد الحكيمي وأبو بكر الصولي وغيرهم.

قال صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي: رأيت البحتري هاهنا عندنا قبل أن يخرج إلى العراق، يجتاز بنا الجامع من هذا الباب، وأومأ إلى جنبتي المسجد، يمدح أصحاب البصل والباذنجان، وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه، ثم كان منه ما كان، وعلوة التي شبب بها في كثير من أشعاره هي بنت زريقة الحلبية، وزريقة أمها.

وحكى أبو بكر الصولي في كتابه الذي وضعه في " أخبار أبي تمام الطائي " أن البحتري كان يقول: أول أمري في الشعر ونباهتي فيه أني صرت إلى أبي تمام وهو بحمص، فعرضت عليه شعري، وكان يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده، وعرض عليه شعره، فلما سمع شعري أقبل علي، وترك سائر الناس، فلما تفرقوا قال لي: أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك؟ فشكوت خَلة، فكتب إلى أهل معرة النعمان، وشهد لي بالحذق وشفع لي إليهم وقال لي: امتدحهم؟ فصرت إليهم فأكرموني بكتابه ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصبته.

وقال أبو عبادة المذكور: أول ما رأيت أبا تمام، وما كنت رأيته قبلها، أني دخلت على أبي سعيد محمد بن يوسف، فامتدحته بقصيدتي التي أولها:

أأفاق صب من هوى فأفيقا
أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فأنشدته إياها، فلما أتممتها سر بها، وقال لي: أحسن الله إليك يا فتى! فقال له رجل في المجلس: هذا، أعزك الله، شعري علّقه هذا الفتى، فسبقني به إليك، فتغير أبو سعيد وقال لي: يا فتى! قد كان في نسبك وقرابتك ما يكفيك أن تمت به إلينا، ولا تحمل نفسك على هذا، فقلت: هذا شعري أعزك الله، فقال الرجل: سبحان الله يا فتى! لا تقل هذا، ثم ابتدأ فأنشد من القصيدة أبياتاً، فقال لي أبو سعيد: نحن نبلغك ما تريد، ولا تحمل

نفسك على هذا، فخرجت متحيراً لا أدري ما أقول، ونويت أن أسأل عن الرجل من هو، فما بعدت حتى ردني أبو سعيد ثم قال لي: جنيت عليك فاحتمل، أتدري من هذا؟ فقلت: لا، قال: هذا ابن عمك حبيب بن أوس الطائي أبو تمام، فقم إليه، فقمت إليه فعانقته. ثم أقبل علي يقرظني ويصف شعري وقال: إنما مزحت معك، فلزمته بعد ذلك وكثر عجبي من سرعة حفظه.

وروى الصولي أيضاً في كتابه المذكور أن أبا تمام راسل أم البحتري في التزوج بها، فأجابته وقالت له: اجمع الناس للإملاك، فقال: الله أجل من أن يذكر بيننا، ولكن نتصافح ونتسافح.

وقيل للبحتري: أيما أشعر أنت أم أبو تمام؟ فقال: جيده خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه.

وكان يقال لشعر البحتري: سلاسل الذهب، وهو في الطبقة العليا.

ويقال: إنه قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر: أبو تمام أم البحتري أم المتنبي؟ فقال: حكيمان والشاعر البحتري. ولعمري ما أنصفه ابن الرومي في قوله:

والفتى البحتري يسرق ما قا
ل ابن أوس في المدح والتشبيب
كل بيت له يجود معنا
ه فمعناه لابن أوس حبيب

وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري، فأنشدني بيت أوس بن حجر:

إذا مقـــرم منـــا ذَرَا حـــدَّ نابـــه

تخمَّـــط فينـــا نـــاب آخـــر مقـــرم

وقال: نعيت إلي نفسي، فقلت: أعيذك بالله من هذا، فقال: إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطيءٍ مثلك، أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شبيبة، وهو من رهطه وهو يتكلم فقال: يا بني! نعى نفسي إلي إحسانك في كلامك، لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله، قال: فمات أبو تمام بعد سنة من هذا.

وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شعراً لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال خطر، فقال لي: أحسنت، أنت أمير الشعر بعدي، فكان قوله هذا أحبَّ إلي من جميع ما حويته.

وقال ميمون بن هارون: رأيت أبا جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري المؤرخ، وحاله متماسكة، فسألته، فقال: كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء، فقال: لست أقبل إلا ممن قال مثل قول البحتري في المتوكل:

ولـــو أن مشـــتاقاً تكلـــف فـــوق مـــا

في وســـعه لمشـــى إليـــك المنـــبر

فرجعت إلى داري وأتيته وقلت: قد قلت فيك أحسن مما قاله البحتري فقال: هاته، فأنشدته:

ولـــو أن بـــرد المصـــطفى إذ لبســـته

يظـــن لظـــن الـــبرد أنـــك صـــاحبه

وقال - وقد أعطيته ولبسته -: ... نعم، هذه أعطافه ومناكبه، فقال: ارجع إلى منزلك، وافعل ما آمرك به، فرجعت، فبعث إلي سبعة آلاف دينار، وقال: ادخر هذه للحوادث من بعدي، ولك علي الجراية والكفاية ما دمت حياً.

وللمتنبي في هذا المعنى:

لـــو تعقِـــل الشـــجر الـــتي قابلتهـــا

مـــدت مُحييـــة إليـــك الأغصـــنا

وسبقهما أبو تمام بقوله:

لـــو ســـعت بقعـــة لإعظـــام نُعمـــى

لســـعى نحوهـــا المكـــان الجـــديب

والبيت الذي للبحتري من جملة قصيدة طويلة أحسن فيها كل الإحسان، يمدح بها أبا الفضل جعفراً المتوكل على الله، ويذكر خروجه لصلاة عيد الفطر، وأولها:

أخفـي هـوى لـك في الضـلوع وأظهـر

وألام مـــن كمـــد عليـــك وأعـــذر

والأبيات التي يرتبط بها البيت المقدم ذكره هي:

بـالبر صُـمت وأنـت أفضـل صـائم

وبســـنة الله الرضـــية تفطـــر

فـــانعم بيـــوم الفطـــر عينـــاً إنـــه
يـــوم أغـــرُّ مـــن الزمـــان مشـــهَّر
أظهـــرتَ عـــز الملـــك فيـــه بجحفـــل
لجـــبٍ يُحـــاط الـــدين فيـــه ويُنصـــر
خلنـــا الجبـــال تســـير فيـــه وقـــد غـــدت
عـــدداً يســـير بـــه العديـــد الأكثـــر
فالخيـــل تصـــهل، والفـــوارس تـــدَّعي
والبـــيض تلمـــع، والأســـنة تزهـــر
والأرض خاشـــعة تميـــد بثقلـــها
والجـــو معتكـــر الجوانـــب أغـــبر
والشـــمس طالعـــةٌ توقـــدُ في الضـــحى
طـــوراً ويُطفيهـــا العَجـــاج الأكـــدر
حتـــى طلعـــت بضـــوء وجهـــك فـــانجلى
ذاك الـــدُجى وانجـــاب ذاك العِثْيَـــر
فـــافتنَّ فيـــك النـــاظرون فإصـــبع
يُـــومَى إليـــك بهـــا وعـــين تنظـــر
يجـــدون رؤيتـــك الـــتي فـــازوا بهـــا
مـــن أنعـــم الله الـــتي لا تُكفـــر
ذكـــروا بطلعتـــك الـــنبي فهللـــوا
لمـــا طلعـــتَ مـــن الصـــفوف وكـــبروا

حتـــى انتهيـــت إلى المصـــلى لابســـاً
نـــور الهـــدى يبـــدو عليـــك ويظهـــر
ومشـــيت مِشـــية خاشـــعٍ متواضـــعٍ
لله لا يُزهـــــــى ولا يتكـــــــبر
فلـــو أن مشـــتاقاً تكلـــف غـــير مـــا
في وســـعه لمشـــى إليـــك المنـــبر
أُيـــدت مـــن فصـــل الخطـــاب بحكمـــةٍ
تـــنبي عـــن الحـــق المـــبين وتخـــبر
ووقفـــت في بـــرد الـــنبي مـــذكراً
بـــالله تنـــذر تـــارةً وتبشّـــر

هذا القدر هو المقصود مما نحن فيه، وهذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة، والسهل الممتنع، فلله دره! ما أسلس قياده وأعذب ألفاظه، وأحسن سبكه وألطف مقاصده، وليس من الحشو شيء، بل جميعه نخب.

وديوانه موجود، وشعره سائر، فلا حاجة إلى الإكثار منه هاهنا، لكن نذكر من وقائعه ما يستظرف: فمن ذلك أنه كان له غلام اسمه نسيم فباعه، فاشتراه أبو الفضل بن وهب الكاتب - وقد سبق ذكر أخيه سليمان في حرف السين - ثم إن البحتري ندم على بيعه وتتبعته نفسه، فكان يعمل فيه الشعر ويذكر أنه خدع وأن بيعه لم يكن من مراده، فمن ذلك قوله:

أنسيمُ هل للدهر وعد صادق
فيما يؤمله المحبُّ الوامق
ما لي فقدت في المنام ولم تزل
عون المشوق إذا جفاه الشائق
أمنِعتَ أنت من الزيارة رقبةً
منهم فهل مُنِع الخيال الطارق
اليوم جاز بي الهوى مقداره
في أهله وعلمت أني عاشق
فليهنئ الحسنَ بن وهب أنه
يلقى أحبته ونحن نفارق

وله فيه أشعار كثيرة.

ومن أخباره أنه كان لحلب شخص يقال له طاهر بن محمد الهاشمي، مات أبوه وخلف له مقدارَ مائة ألف دينار، فأنفقها على الشعراء والزُوار في سبيل الله، فقصده البحتري من العراق، فلما وصل إلى حلب قيل له: إنه قد قعد في بيته لديون ركبته، فاغتم البحتري لذلك غماً شديداً، وبعث المدحة إليه مع بعض مواليه، فلما وصلته ووقف عليه بكى، ودعا بغلام له وقال له: بع داري، فقال له: أتبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس فقال: لا بد من بيعها، فباعها بثلثمائة دينار فأخذ صُرةً وربط فيها مائة دينار، وأنفذها إلى البحتري، وكتب إليه معه رقعةً فيها هذه الأبيات:

لـــو يكـــون الحبـــاء حســـب الـــذي أنـــ

ـــــت لـــــدينا بــــه محـــلٌّ وأهــــل

لحبيـــــت اللُجـــين والـــدر واليـــا

قـــوت حثـــواً وكـــان ذاك يقـــل

والأديــــب والأريــــب بالعـــذ

ر إذا قصــــر الصـــديق المقـــل

فلما وصلت الرقعة إلى البحتري رد الدنانير، وكتب إليه:

بـــأبي أنـــت والله للـــبر أهـــل

والمســـاعي بعـــد وســـعيك قبـــل

والنـــوال القليـــل يكثـــر إن شـــا

ء مرجيـــك والكـــثير يقـــل

غـــير أنـــي رددت بـــرك إذ كـــا

ن ربـــاً منـــك، والربـــا لا يحـــل

وإذا مـــا جزيـــت شـــعراً بشـــعر

قضـــي الحـــق، والـــدنانير فضـــل

فلما عادت الدنانير إليه حل الصرة، وضم خمسين ديناراً أخرى، وحلف أنه لا يردها عليه، وسيرها، فلما وصلت إلى البحتري أنشأ يقول:

شـــكرتك إن الشـــكر للعبـــد نعمـــة

ومـــن يشـــكر المعـــروف فـــالله زائـــده

لكـــل زمـــانٍ واحـــد يقتـــدى بـــه
وهـــذا زمـــان أنـــت لا شـــك واحـــده

وكان البحتري كثيراً ما ينشد لشاعر أنسي اسمه، ويعجبه قوله:

حَمـــــــام الأراك ألا فاخبرينـــــــا
لمـــــن تنـــــدبين ومـــــن تُعولينـــــا
فقـــد شُـــقّت بـــالنوح منـــا القلـــوب
وأبكيـــتِ بالنـــدب منـــا العيونـــا
تعـــالي نُقِـــمْ مأتمـــاً للـــهموم
ونعـــــول إخواننـــــا الظاعنينـــــا
ونســـــــــعدكن وتســـــــــعدننا
فـــإن الحـــزين يواســـي الحزينـــا

ثم إني وجدت هذه الأبيات لنبهان الفقعسي من العرب.

وكان البحتري قد اجتاز بالموصل، وقيل: برأس عين، ومرض بها مرضاً شديداً، وكان الطبيب يختلف إليه ويداويه، فوصف له يوماً مزوَّرة[1]، ولم يكن عنده من يخدمه سوى غلامه، فقال للغلام: اصنع هذه المزورة، وكان رؤساء البلد عنده حاضراً، وقد جاء يعوده، فقال ذاك الرئيس: هذا الغلام ما يحسن طبخها، وعندي طباخ من صفته وصفته، وبالغ في حسن صنعته، فترك الغلام عملها اعتماداً على ذلك الرئيس وقعد البحتري

[1] نوع من الحساء يُصنع للمريض.

ينتظرها، واشتغل الرئيس عنها ونسي أمرها، فلما أبطأت عنه وفات وقت وصولها إليه، كتب إلى الرئيس:

وجـــدتُ وعـــدك زوراً في مـــزورة
حلفـــت مجتهـــداً إحكـــام طاهيهـــا
فـلا شـفى الله مـن يرجـو الشـفاء بهـا
ولا علـــت كـــف مُلـــق كفـــه فيهـــا
فـاحبس رسـولك عـني أن يجـيء بهـا
فقـد حبسـتُ رسـولي عـن تقاضـيها

أخباره ومحاسنه كثيرة فلا حاجة إلى الإطالة. ولم يزل شعره غير مرتب حتى جمعه أبو بكر الصولي ورتَّبه على الحروف، وجمعه أيضاً علي بن حمزة الأصبهاني، ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما صنع بشعر أبي تمام.

وللبحتري أيضاً كتاب "حماسة" على مثال "حماسة أبي تمام" وله كتاب "معاني الشعر": وكانت ولادته سنة ست وقيل: خمس ومائتين، وتوفي سنة أربع وثمانين وقيل: خمس وثمانين وقيل: ثلاث وثمانين ومائتين، والأول أصح والله أعلم. وقال ابن الجوزي في كتاب "أعمار الأعيان": توفي البحتري وهو ابن ثمانين سنة، والله أعلم بالصواب، وكان موته بمنبج، وقيل بحلب، والأول أصح.

وقال الخطيب في "تاريخ بغداد": إنه كان يكنى أبا الحسن وأبا عبادة، فأشير عليه في أيام المتوكل أن يقتصر على أبي عبادة فإنها أشهر، ففعل.

وأهل الأدب كثيراً ما يسألون عن قول أبي العلاء المعري:

وقال الوليد: النبع ليس بمثمر
وأخطأ، سربُ الوحش من ثمر النبع

فيقولون: من هو الوليد المذكور وأين قال: النبع ليس بمثمر، ولقد سألني عنه جماعة كثيرة، والمراد بالوليد هو البحتري المذكور، وله قصيدة طويلة يقول فيها:

وعيرتني سجال العُدْم جاهلةً
والنبع عُريان ما في فرعه ثمرُ

وهذا البيت هو المشار إليه في بيت المعري، وإنما ذكرت هذا لأنه فائدة تستفاد.

وعبيد الله وأخوه أبو عبادة، ابنا يحيى بن الوليد البحتري، اللذان مدحهما المتنبي في قصائده، هما حفيدا البحتري الشاعر المذكور، وكانا رئيسين في زمانهما.

والبحتري: بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة من فوقها وبعدها راء، هذه النسبة إلى بحتر، وهو أحد أجداده، كما تقدم ذكره في عمود نسبه.

وزردفنة: بفتح الزاي وسكون الراء وفتح الدال المهملة، وسكون الفاء وفتح النون وبعدها هاء ساكنة، وهي قرية من قرى منبج، بالقرب منها.

ومنبج: بفتح الميم وسكون النون وكسر الباء الموحدة

وبعدها جيم، وهي بلدة بالشام بين حلب والفرات بناها كسرى لما غلب على الشام، وسماها منبه، فعُرِّبت فقيل: منبج، ولكونها وطن البحتري كان يذكرها في شعره كثيراً، فمن ذلك قوله في آخر قصيدة طويلة يخاطب بها الممدوح، وهو أبو جعفر محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسي:

لا أنسينْ زمناً لديك مهذباً
وظلال عيش كان عندك سجسج
في نعمة أوطنتها وأقمت في
أفيائها فكأنني في منبج

وكان البحتري مقيماً في العراق في خدمة المتوكل والفتح بن خاقان، وله الحرمة التامة، فلما قتلا، كما هو مشهور في أمرهما، رجع إلى منبج، وكان يحتاج للترداد إلى الوالي بسبب مصالح أملاكه، ويخاطبه بالأمير لحاجته إليه، ولا تطاوعه نفسه إلى ذلك، فقال منها:

مضى جعفر والفتح بين مرملٍ
وبين صبيغ بالدماء مضرج
أأطلب أنصاراً على الدهر بعدما
ثوى منهما في الترب أوسي وخزرجي
أولئك ساداتي الذين بفضلهم
حلبت أفاويق الربيع المثجج

مضـوا أممـاً قصـداً وخلفـت بعـدهم
أخاطـب بالتـأمير والـي منـبج

وذكر المسعودي في "مروج الذهب" أن هارون الرشيد اجتاز ببلاد منبج ومعه عبد الملك بن صالح، وكان أفصح ولد العباس في عصره، فنظر إلى قصر مشيد وبستان معتمر بالأشجار كثير الثمار، فقال: لمن هذا؟ فقال: هو لك ولي بك يا أمير المؤمنين! وقال: كيف بناء هذا القصر؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس. قال: فكيف مدينتك؟ قال: عذبة الماء باردة الهواء، صلبة الموطأ قليلة الأدواء، قال: فكيف ليلها؟ قال: سحر كله، انتهى كلام المسعودي.

وعبد الملك المذكور هو أبو عبد الرحمن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه. وكانت منبج إقطاعاً له، وكان مقيماً بها. وتوفي سنة تسع وتسعين ومائة بالرقة، رحمه الله تعالى. وله بلاغة وفصاحة أضربت عن ذكرها خوف الإطالة.

وذكر ياقوت الحموي في كتابه "المشترك": باب السقيا خمسة مواضع، ثم قال في آخر هذا الباب: والخامس قرية على باب منبج ذات بساتين، وهي وقف على ولد البحتري الشاعر، وقد ذكرها أبو فراس بن حمدان في شعره.

الملوك والوزراء

الوزير نظام المُلك (٤٨٦هـ)

أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الملقب نظام الملك قوام الدين الطوسي ؛ ذكر السمعاني، في كتاب " الأنساب " في ترجمة الراذ كان أنها بليدة صغيرة بنواحي طوس، قيل: إن نظام الملك كان في نواحيها، وكان من أولاد الدهاقين، واشتغل بالحديث والفقه، ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليه بمدينة بلخ - وكان يكتب له - فكان يصادره في كل سنة، فهرس منه وقصد داود بن ميكائيل بن سلجوق، والد السلطان ألب أرسلان فظهر له منه النصح والمحبة، فسلمه إلى ولده ألب أرسلان، وقال له: اتخذه والداً ولا تخالفه فيما يشير به، فلما ملك ألب أرسلان - كما سيأتي في موضعه من حرف الميم إن شاء الله تعالى - دبَّر أمره فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشر سنين، فلما مات ألب أرسلان وازدحم أولاده على الملك وطَّد المملكة لولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك، وليس للسلطان إلا التخت[1] والصيد، وأقام على هذا عشرين سنة.

ودخل على الإمام المقتدى بالله، فأذن له في الجلوس بين يديه، وقال له: يا حسن! رضي الله عنك برضاء أمير المؤمنين عنك.

وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والصوفية، وكان كثير الإنعام على

---

[1] تَخت ج تُخُوت: العرش.

الصوفية، وسئل عن سبب ذلك فقال: أتاني صوفي وأنا في خدمة بعض الأمراء فوعظني وقال: اخدم من تنفعك خدمته ولا تشتغل بمن تأكله الكلاب غداً، فلم أعلم معنى قوله، فشرب ذلك الأمير من الغد [إلى الليل] وكانت له كلاب كالسباع تفترس الغرباء بالليل، فغلبه السكر فخرج وحده فلم تعرفه الكلاب فمزقته، فعلمت أن الرجل كوشف بذلك، فأنا أخدم الصوفية لعلي أظفر بمثل ذلك.

وكان إذا سمع الأذان أمسك عن جميع ما هو فيه. وكان إذا قدم عليه إمام الحرمين أبو المعالي وأبو القاسم القشيري صاحب الرسالة بالغ في إكرامهما وأجلسهما في مسنده. وبنى المدارس والربط والمساجد في البلاد، وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس. وشرع في عمارة مدرسته ببغداد سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وفي سنة تسع وخمسين جمع الناس على طبقاتهم ليدرس بها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى، فلم يحضر، فذكر الدرس أبو نصر بن الصباغ صاحب "الشامل"، عشرين يوماً، ثم جلس الشيخ أبو إسحاق بعد ذلك. وهذا الفصل قد استقصيته في ترجمة أبي نصر عبد السيد بن الصباغ صاحب "الشامل" فلينظر هناك. وكان الشيخ أبو إسحاق إذا حضر وقت الصلاة خرج منها وصلى في بعض المساجد، وكان يقول: بلغني أن أكثر آلاتها غصب.

وسمع نظام الملك الحديث وأسمعه، وكان يقول: إني لأعلم أني لست أهلاً لذلك، ولكني أريد أن أربط نفسي في قطار النقلة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويروى له من الشعر قوله:

بعد الثمانين ليس قوه
قد ذهبت شِرَّة الصبوه
كأنني والعصا بكفي
موسى ولكن بلا نبوه

وقيل: إن هذين البيتين لأبي الحسن محمد بن أبي الصقر الواسطي - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى -.

[ويروى له أيضاً - أعني نظام الملك -:

تقوَّس بعد طول العمر ظهري
وداستني الليالي أي دوس
فأمشي والعصا تمشي أمامي
كأن قوامها وتر بقوس

وكانت ولادة نظام الملك يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة بنوقان، إحدى مدينتي طوس، وتوجه صحبة ملك شاه إلى أصبهان، فلما كانت ليلة السبت عاشر شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة أفطر وركب في محفته، فلما بلغ إلى قرية قريبة من نهاوند يقال لها سحنة، قال: هذا الموضع قتل فيه خلق كثير من الصحابة زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم أجمعين، فطوبى لمن كان معهم، فاعترضه في تلك الليلة صبي ديلمي على هيئة الصوفية معه قصة،

فدعا له وسأله تناولها، فمدَّ يده ليأخذها فضربه بسكين في فؤاده، فحمل إلى مضربه فمات، وقتل القاتل في الحال بعد أن هرب، فعثر في طنب خيمة فوقع، وركب السلطان إلى معسكره، فسكنهم وعزاهم، وحمل إلى أصبهان ودفن بها.

وقيل: إن السلطان دس عليه من قتله فإنه سئم طول حياته، واستكثر ما بيده من الإقطاعات، ولم يعش السلطان بعده سوى خمس وثلاثين يوماً، فرحمه الله تعالى لقد كان من حسنات الدهر.

ورثاه شبل الدولة أبو الهيجاء مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - وكان ختنه، فإن نظام الملك زوجه ابنته - فقال:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة
نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها
فردها غيرة منه إلى الصدف

وقد قيل: إنه قتل بسبب تاج الملك أبي الغنائم المرزبان بن خسروفيروز المعروف بابن دارست، فإنه كان عدو نظام الملك، وكان كبير المنزلة عند مخدومه ملك شاه، فلما قتل رتبه موضعه في الوزارة، ثم إن غلمان نظام الملك وثبوا عليه فقتلوه وقطعوه إرباً إرباً في ليلة الثلاثاء ثاني عشر المحرم من سنة ست وثمانين وأربعمائة، وعمره سبع وأربعون سنة، وهو الذي بنى على قبر الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى.

الملك عادل نور الدين (٥٦٩هـ)

أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، الملقب الملك العادل نور الدين، قد تقدم ذكر أبيه في حرف الزاي.

ولما حاصر أبوه قلعة جعبر - حسبما تقدم ذكره في ترجمته - كان ولده نور الدين المذكور في خدمته، فلما قتل أبوه سار نور الدين وفي خدمته صلاح الدين محمد بن أيوب اليغيساني وعساكر الشام إلى مدينة حلب فملكها في ذلك التاريخ. وملك أخوه سيف الدين غازي - المذكور في حرف الغين - مدينة الموصل وما والاها من تلك النواحي.

ثم إنه نزل على دمشق محاصراً لها وصاحبها يومئذ مجير الديم أبو سعيد أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين، وهو أتابك الملك دقاق بن تتش - المقدم ذكره في ترجمة تتش في حرف التاء - وكان نزوله عليها ثالث صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وملكها يوم الأحد تاسع الشهر المذكور، وعوض مجير الدين أبق عن دمشق حمص ثم أخذها منه وعوضه عنها بالس[1]، فانتقل إليها وأقام بها مدة ثم قصد بغداد في أيام الإمام المقتفي.

---

[1] بلدة بالشام بين حلب والرقة، وكانت على ضفة الفرات الغربية.

وكان أتابكه معين الدين أثر بن عبد الله عتيق جد أبيه ظهير الدين طغتكين الأتابك - المقدم ذكره في ترجمة تتش السلجوقي، وقد سبق ذكر ظهير الدين طغتكين الأتابك هناك أيضاً.

ثم استوزر نور الدين محمود على بقية بلاد الشام من حماة وبعلبك، وهو الذي بنى سورها، منبج ما وبين ذلك، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وبهسنا وتلك الأطراف، وكان فتحه لمرعش في ذي القعدة من سنة ثمان وستين وخمسمائة ولبهسنا في ذي الحجة من السنة، وافتتح أيضاً من بلاد الفرنج حارم، وكان فتحها في أواخر شهر رمضان سنة تسع وخمسمائة، وفتح أعزاز وبانياس وغير ذلك ما تزيد عدته على خمسين حصناً.

ثم سير الأمير أسد الدين شيركوه - المقدم ذكره - إلى مصر ثلاث دفعات، وملكها السلطان صلاح الدين في الدفعة الثالثة نيابة عنه، وضرب باسمه السكة والخطبة، وهي قضية مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة في شرحها، وسيأتي ذلك في ترجمة صلاح الدين إن شاء الله تعالى.

وكان ملكاً عادلاً زاهداً عابداً ورعاً، متمسكاً بالشريعة، مائلاً إلى أهل الخير، مجاهداً في سبيل الله تعالى، كثير الصدقات، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة، وقد تقدم ذلك في ترجمة الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري، ورتب له ما يكفيه، وبحماة الجامع الذي على نهر العاصي، وجامع

الرها وجامع منبج، وبيمارستان دمشق، ودار الحديث بها أيضاً، وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف.

وكان بينه وبين أبي الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية، مكاتبات ومحاورات بسبب المجاورة، فكتب إليه نور الدين في بعض الأزمنة كتاباً يتهدده فيه ويتوعده لسبب اقتضى ذلك، فشق على سنان فكتب جوابه أبياتاً ورسالة، وهما:

يـاذا الـذي بقـراع السـيف هـددنا
لا قـام مصـرع جـنبي حـين تصـرعه
قـام الحمـام إلى البـازي يهـدده
واسـتيقظت لأسـود الـبر أضـبعه
أضـحى يسـد فـم الأفعـى بإصـبعه
يكفيـه مـا قـد تلاقـى منـه إصـبعه

وقفنا على تفاصيله وجمله، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله، فيالله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعوضة تعد في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون، فدمرنا عليه وما كان لهم من ناصرين، أو للحق تدحضون، وللباطل تنصرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأما ما صدر من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أمانٍ كاذبة، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أن

الرواح لا تضمحل بالأمراض، كم بين قوي وضعيف، ودني وشريف وإن عدنا إلى الظاهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن والمعقولات، فلنا أسوة حسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله "ما أوذي نبي ما أوذيت" ولقد علمتم ما جرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال، والأمر ما زال، ولله الحمد في الآخرة والأولى، إذ نحن مظلومون لا ظالمون، ومغضوبون لا غاضبون، وإذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ولقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، وما يتمنونه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت، " قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين " (الجمعة ٦ — ٧) وفي أمثال العامة السائرة: أو للبط تهددون بالشط فهيئ للبلايا جلباباً، وتدرع للرزايا أثواباً، فلأظهرن عليك منك، ولأفتتنهم فيك عنك، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، وما ذلك على الله بعزيز.

وهذه الرسالة نقلت من خط القاضي الفاضل على هذه الصورة، ورأيت في نسخة زيادة على هذا، وهي: فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والله أعلم؛ ورأيت في بعض النسخ زيادة بيت في أول الأبيات الثلاثة، وهو:

يا للرجال لأمر هال مفظعه
ما مرَّ قط على سمعي توقعه

وكتب سنان المذكور مرة أخرى إليه، وقد جرت بينهما وحشة:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت
بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى
مغارسها منا، وفينا حديدها

وبالجملة فإن محاسن نور الدين كثيرة؛ وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة؛ وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، بقلعة دمشق، بقلعة الخوانيق، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع. ودُفن في بيت بالقلعة كان يلازم الجلوس فيه والمبيت أيضاً، ثم نقل إلى تربته بمدرسته التي أنشأها عند باب سوق الخواصين، وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون: إن الدعاء عند قبره مستجاب، ولقد جربت ذلك فصحَّ، رحمه الله تعالى.

وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الكبير الذي سماه " الكامل " في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة أن نور الدين المذكور نزل في البقيعة تحت حصن الكراد في السنة المذكورة محاصراً لحصن الأكراد، وعازماً على قصد طرابلس وهو في جميع عساكره، فاجتمع من الفرنج خلق كثير وكبسوهم في النهار، والمسلمون في غفلة عنهم، فلم يتمكنوا من الاستعداد لهم وهربوا منهم،

ونجا نور الدين بنفسه وهي وقعة مشهورة معروفة، ونزل على بحيرة قدس بالقرب من حمص، وبينه وبين الفرنج مقدار أربعة فراسخ، فسير إلى حلب وبقية البلاد وأحضروا الأموال الكثيرة وأنفقها ليقوى جيشه ثم يعود إليهم فيستوفي الثأر، فقال له بعض أصحابه: إن في بلادك إدرارات وصدقات وصلات كثيرة على الفقهاء والصوفية والقراء، ولو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح، فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال: إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا بسهام قد تصيب وتخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال فكيف يحل أن أعطيه غيرهم.

وكان أسمر اللون طويل القامة حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه.

وكان قد عهد بالملك إلى ولده الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، فقام بالأمر من بعده، وانتقل من دمشق إلى حلب ودخل قلعتها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر، وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام، ولم يبق عليه سوى مدينة حلب، ولم يزل الصالح بها إلى أن توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين

وخمسمائة، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة، والله أعلم. وكان مبدأ مرضه في تاسع شهر رجب من السنة المذكورة، وحدث له قولنج في مستهل جمادى الأولى، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس، وتأسفوا عليه لأنه كان محسناً محمود السيرة، ودُفن في المقام الذي في القلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك، رحمه الله تعالى.

وتوفي مجير الدين أبق المذكور في سنة أربع وستين وخمسمائة ببغداد، ودفن في داره، كذا وجدته في بعض المسودات التي بخطي، والله أعلم، ومولده يوم الجمعة ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ببعلبك، والله تعالى أعلم.

ملك شاه السلجوقي (٤٨٥هـ)

أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب جلال الدولة، وقد تقدم ذكر أبيه وجماعة من أهل بيته.

ولما توفي أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته كان ملكشاه المذكور في صحبته، ولم يصحبه قبلها في سفر غير هذه المرة، فولي الأمر من بعده بوصية والده وتحليف الأمراء والجناد على طاعته، ووصى وزيره نظام الملك أبا علي الحسن المقدم ذكره في حرف الحاء على تفرقة البلاد بين أولاده، ويكون مرجعهم إلى ملكشاه المذكور، ففعل ذلك وعبر بهم نهر جيحون راجعاً إلى البلاد، وقد شرحت الواقعة في ترجمة والده فلا حاجة إلى الإعادة.

فلما وصل إلى البلاد وجد بعض أعمامه وهو قاروت بك صاحب كرمان قد خرج عليه، فعاجله وتصافا بالقرب من همذان، فنصره الله عليهم وانهزم عمه، فتبعه بعض جند ملكشاه فأسروه وحملوه إلى ملكشاه، فبذل التوبة ورضي بالاعتقال وأن لا يقتل، فلم يجبه ملكشاه إلى ذلك، فأنفذ له خريطةً مملوءةً من كتب أمرائه، وأنهم حملوه على الخروج عن طاعته وحسَّنوا له ذلك، فدعا السلطان بالوزير نظام الملك فأعطاه الخريطة ليفتحها

ويقرأ ما فيها، فلم يفتحها، وكان هناك كانون نار، فرمى الخريطة فيه فاحترقت الكتب، فسكنت قلوب العساكر وأمنوا، ووطنوا أنفسهم على الخدمة، بعد أن كانوا قد خافوا من الخريطة لأن أكثرهم كان قد كاتبه، وكان ذلك سبب ثبات قدم ملكشاه في السلطنة، وكانت هذه معدودة في جميل آراء نظام الملك.

ثم إن ملكشاه أمر بقتل عمه فخنق بوتر قوسه، واستقرت القواعد للسلطان وفتح البلاد واتسعت عليه المملكة، وملك ما لم يملكه أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء المتقدمين، فكان في مملكته جميع بلاد ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم وديار بكر والجزيرة والشام، وخطب له على جميع منابر الإسلام سوى بلاد المغرب، فإنه ملك من كاشغر وهي مدينة في أقصى بلاد الترك إلى بيت المقدس طولاً، ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر وبحر الهند عرضاً، وكان قد قدر لمالكه ملك الدنيا.

وكان من أحسن الملوك سيرةً حتى كان يلقب بالسلطان العادل، وكان منصوراً في الحروب، ومغرماً بالعمائر، فحفر كثيراً من الأنهار، وعمر على كثير من البلدان الأسوار، وأنشأ في المفاوز رباطات وقناطر، وهو الذي عمر جامع السلطان ببغداد ابتدأ بعمارته في المحرم من سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وزاد في دار السلطنة بها، وصنع بطريق مكة مصانع، وغرم عليها أموالاً كثيرة خارجة عن الحصر، وأبطل المكوس والخفارات في جميع البلاد.

وكان لهجاً بالصيد، حتى قيل: إنه ضبط ما اصطاده بيده

فكان عشرة آلاف، فتصدق بعشرة آلاف دينار بعد أن نسي كثيراً منه، وقال: إنني خائف من الله سبحانه وتعالى لإزهاق الأرواح لغير مأكلة، وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار.

وخرج من الكوفة لتوديع الحاج، فجاوز العذيب وشيعهم بالقرب من الواقصة، وصاد في طريقه وحشاً كثيراً فبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها في ذلك الطريق، والمنارة باقية إلى الآن وتُعرف بمنارة القرون، وذلك في سنة ثمانين وأربعمائة.

وكانت السبيل في أيامه ساكنةً والمخاوف آمنةً، تسير القوافل من ما وراء النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفير، ويسافر الواحد والاثنان من غير خوف ولا رهب.

وحكى محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه أن السلطان ملكشاه المذكور توجه لحرب أخيه تكش فاجتاز بمشهد علي بن موسى الرضا رضي الله عنهما بطوس ودخل مع نظام الملك الوزير وصليا فيه وأطالا الدعاء، ثم قال لنظام الملك: بأي شيء دعوت؟ قال: دعوت الله تعالى أن ينصرك ويظفرك بأخيك، فقال: أما أنا فلم أدع بهذا، بل قلت: اللهم انصر أصلحنا للمسليمن وأنفعنا للرعية.

ثم قال الهمذاني أيضاً عقيب هذا: وحكي أن واعظاً دخل عليه ووعظه، فكان من جملة ما حكى له أن بعض الأكاسرة اجتاز منفرداً عن عسكره على باب بستان، فتقدم إلى الباب وطلب ماء

يشربه، فأخرجت له صبية إناء فيه ماء السكر والثلج، فشربه واستطابه، فقال لها: هذا كيف يعمل؟ فقالت: إن قصب السكر يزكو عندنا حتى نعصره بأيدينا، فيخرج منه هذا الماء، فقال: ارجعي وأحضري شيئاً آخر، وكانت الصبية غير عارفة به، ففعلت، فقال في نفسه: الصواب أن أعوضهم عن هذا المكان وأصطفيه لنفسي، فما كان بأسرع من خروجها باكية، وقالت: إن نية سلطاننا قد تغيرت، فقال: ومن أين علمت ذلك؟ قالت: كنت آخذ من هذا ما أريد من غير تعسف، والآن فقد اجتهدت في عصر القصب فلم يسمح ببعض ما كان يأتي، فعلم صدقها، فرجع عن تلك النية، ثم قال لها: ارجعي الآن فأنك تبلغين الغرض، وعقد على نفسه أن لا يفعل ما نواه، فخرجت الصبية ومعها ما شاءت من ماء السكر وهي مستبشرة. فقال السلطان للواعظ: فلم لا تذكر للرعية أن كسرى اجتاز على بستان فقال للناطور: ناولني عنقوداً من الحصرم، فقال له: ما يمكنني ذلك، فإن السلطان لم يأخذ حقه ولا تجوز لي خيانته، فعجب الحاضرون من مقابلته الحكاية بمثلها، ومعارضته بما أوجب الحق له ما أوجب الحق عليه.

وحكى الهمذاني أيضاً أن سواديا لقيه وهو يبكي، فسأله السلطان عن سبب بكائه، فقال: ابتعت بطيخاً بدُريهمات لا أملك غيرها، فلقيني ثلاثة أغلمة أتراك فأخذوه مني، وما لي حيلة سواه، فقال: أمسك، واستدعى فراشاً، وكان ذلك عند باكورة البطيخ، وقال له: إن نفسي قد تاقت إلى البطيخ، فطف في العسكر وانظر من

عنده شيء فأحضره، فعاد ومعه بطيخ، فقال: عند من رأيته؟ قال: عند الأمير فلان، فأحضره، وقال: من أين لك هذا البطيخ؟ فقال: جاء به الغلمان، فقال: أريدهم الساعة، فمضى وقد عرف نية السلطان فيهم، فهربهم، وعاد فقال: لم أجدهم فالتفت إلى السوادي وقال: هذا مملوكي وقد وهبته لك حين لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك، والله لئن خليته لأضربن عنقك، فأخذه السوادي بيده، وأخرجه من بين يدي السلطان فاشترى الأمير نفسه بثلاثمائة دينار، وعاد السوادي وقال: يا سلطان! قد بعث المملوك بثلثمائة دينار فقال: أو قد رضيت؟ قال: نعم، قال: امض مصاحباً.

وكانت البركة والثمن مقرونين بناصيته، فكان إذا يدخل أصبهان أو بغداد أو أي بلد من البلاد كان، دخل معه عدد لا يحصى لكثرته فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله، ويكتسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير.

وحكى الهمذاني أيضاً أنه أحضرت إليه مغنية وهو بالري، فأعجب بها واستطاب غناءها، فهمَّ بها فقالت: يا سلطان! إني أغار على هذا الوجه الجميل أن يعذب بالنار، وإن الحلال أيسر، وبينه وبين الحرام كلمة، فقال: صدقت، واستدعى القاضي فتزوجها منه وابتنى بها، وتوفي عنها.

[وقال صاحب الدول المنقطعة: ومن جملة ما سعى تاج الملك في نظام الملك الوزير أن قال للسلطان: إنه ينفق في كل سنة على أرباب المدارس والرباطات ثلثمائة ألف دينار، ولو جيش بها

جيشاً لبلغ باب القسطنطينية، فاستحضر الناظم واستفسره على الحال، فقال: يا سلطان العالم! إني أنا رجل شيخ، ولو نودي علي لما زادت قيمتي على ثلاثة دنانير، وأنت حدث لو نودي عليك ما زادت قيمتك على ثلاثين ديناراً، وقد أعطاك الله تعالى وأعطاني بك ما لم يعطه أحداً من خلقه، أفلا نعوضه عن ذلك في حملة دينه وحفظة كتابه ثلاثمائة ألف دينار، ثم إنك تنفق على الجيوش المحاربة في كل سنة ستة أضعاف هذا المال، مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً ولا يضرب بسيفه إلا ما قرب منه، وأنا أجيش لك بهذا المال جيشاً تصل من الدعاء سهامه إلى العرض لا يحجبها شيء عن الله تعالى، فبكى السلطان وقال: يا أبت! استكثر من الجيش، والأموال مبذولة لك، والدنيا بين يديك].

وعيون محاسنه أكثر من أن تحصى.

وحكى الهمذاني أيضاً أن ناظم الملك الوزير وقع للملاحين الذين عبروا بالسطان والعسكر نهر جيحون على العامل بأنطاكية، وذلك لسعة المملكة، وكان مبلغ أجره المعابر أحد عشر ألف دينار.

وتزوج الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين ابنة السلطان، وكان السفير في الخطبة الشيخ أبا إسحاق الشيرازي صاحب المهذب والتنبيه رحمه الله تعالى، وأنفذه الخليفة إلى نيسابور لهذا السبب، فإن السلطان كان هناك، فلما وصل إلى بغداد في أقل من أربعة أشهر، وناظر إمام الحرمين هناك، فلما أراد الإنصراف من نيسابور خرج إمام الحرمين للوداع، وأخذ بركابه حتى ركب أبو إسحاق،

وظهر له في خراسان منزلة عظيمة وكانوا يأخذون التراب الذي وطئته بغلته فيتبركون به.

وكان زفاف ابنة السلطان إلى الخليفة في سنة ثمانين وأربعمائة، وفي صبيحة دخولها عليه أحضر الخليفة المقتدي عسكر السلطان على سماط صنعه لهم كان فيه أربعون ألف مناً سكراً، وفي بقية هذه السنة في ذي القعدة منها رزق الخليفة ولداً من ابنة السلطان سماه أبا الفضل جعفراً، وزينت بغداد لأجله.

وكان السلطان قد دخل إلى بغداد دفعتين، وهي من جملة بلاده التي تحتوي عليها مملكته، وليس للخليفة فيها سوى الاسم، فلما عاد إليها الدفعة الثالثة دخلها في أوائل شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وخرج من فوره إلى ناحية دجيل لأجل الصيد، فاصطاد وحشاً وأكل من لحمه، فابتدأت به العلة، وافتصد، فلم يكثر من إخراج الدم، فعاد إلى بغداد مريضاً، ولم يصل إليه أحد من خاصته، فلما دخلها توفي ثاني يوم دخوله، وهو السادس عشر من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وكانت ولادته في التاسع من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وقيل: إنه سم في خلال تخلل به، وحمل تابوته إلى أصبهان ودفن بها في مدرسة عظيمة موقوفة على طائفة للشافعية والحنفية، ولم يشهد أحد جنازته ببغداد ولا صلي عليه في الصورة الظاهرة ولا جلسوا للعزاء، ولا حذف عليه ذنب فرس كعادة أمثاله، بل كأنه اختلس من العالم.

ومن عجيب الاتفاق أنه لما دخل بغدا في هذه المرة، وكان للخليفة المقتدي ولدان: أحدهما الإمام المستظهر بالله، والآخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السلطان وقد تقدم ذكر ولادته، وكان الخليفة قد بايع لولده المستظهر بالله بولاية العهد من بعده لأنه كان الأكبر، فألزم السلطان الخليفة أن يخلعه إلى البصرة، فشقَّ ذلك على الخليفة، وبالغ في استنزال السلطان عن هذا الرأي، فلم يفعل، فسأل المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله، فقيل: إن الخليفة في تلك الأيام جعل يصوم ويطوي وإذا أفطر جلس على الرماد للإفطار، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان، فمرض السلطان في تلك الأيام ومات، وكفي الخليفة أمره، وتزوج ابنة الإمام المستظهر بالله ابنة السلطان خاتون العصمة في سنة اثنتين وخمسمائة.

وقد تقدم ذكر أولاده الثلاثة الملوك، وهم بركياروق وسنجر محمد، كل واحد له ترجمة في حرفه، رحمهم الله تعالى أجمعين.

وكاشغر: بفتح الكاف وبعد الألف شين معجمة ساكنة وغين معجمة مفتوحة وبعدها راء، وقد ذكرت أينْ هي فلا حاجة إلى الإعادة، وهي قصبة بلاد تركستان.

والواقصة: بفتح الواو وبعد الألف قاف مكسورة وبعدها صاد مهملة مفتوحة ثم هاء ساكنة، وهي منزل معروف بطريق مكة يقال لها واقصة الحرون.

والباقي معروف فلا حاجة إلى تفسيره، والله أعلم بالصواب.

سيف الدولة بن حمدان (٣٣٨هـ)

سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان قال أبو منصور الثعالبي في كتاب " يتيمة الدهر ": كان بنو حمدان ملوكاً أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، ووساطة قلادتهم، وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ويقال: إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها؛ وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز له، وكان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت.

ومن محاسن شعر سيف الدولة في وصف قوس قزح، وقد أبدع فيه كل الإبداع، وقيل: إن هذه الأبيات لأبي الصقر القبيصي، والأول ذكره الثعالبي في كتاب " اليتيمة ":

وساق صبيح للصبوح دعوته
فقام وفي أجفانه سنة الغَمض

يطـــوف بكاســـات العقـــار كـــأنجمٍ
فمـــن بـــين مـــنقضٍ علينـــا ومـــنفض
وقـــد نشـــرت أيـــدي الجنـــوب مطارفـــاً
على الجو دكناً والحواشي على الأرض
يطرزهـــا قـــوس الســـحاب بأصـــفرٍ
علـــى أحمـــرٍ في أخضـــر تحـــت مبـــيض
كأذيـــال خَـــودٍ أقبلـــت في غلائـــل
مصـــبغة، والـــبعض أقصـــر مـــن بعـــض

وهـذا مـن التشـبيهات الملوكيـة الـتي لا يكـاد يحضـر مثلـها للسوقة، والبيت الأخير أخذ معناه أبو علي الفرج بن محمد بن الأخوة المؤدب البغدادي، فقال في فرس أدهم محجَّل:

لـــبس الصـــبح والدجنـــة برديـــ
ـــن فـــأرخى بـــرداً وقلـــص بـــردا

وقيل: إنها لعبد الصمد بن المعذل.

وكانـت لـه جاريـة مـن بنـات ملـوك الـروم في غايـة الجمـال، فحسـدها بقيـة الحظايـا لقربهـا منـه وَمحلّهـا مـن قلبـه، وعزمنـا علـى إيقـاع مكـروه بهـا مـن سـم أو غـيره، فبلغـه الخـبر وخـاف عليهـا، فنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً، وقال:

راقبـــتني العيـــون فيـــك فأشفقـــ
ـــت ولم أخـــل قـــط مـــن إشـــفاق

ورأيـــت العـــدو يحســـدني في
ك مجـــداً يـــا أنفـــس الأعـــلاق

فتمنيـــت أن تكـــوني بعيـــداً
والـــذي بيننـــا مـــن الـــود بـــاق

رب هجـر يكـون مـن خـوف هجـر
وفـراقٍ يكـون خـوف فـراق

ورأيت هذه الأبيات بعينها في ديوان عبد المحسن الصوري، والله أعلم لمن هي منهما. ومن شعره أيضاً:

أقبلـــه علـــى جـــزع
كشـــرب الطـــائر الفـــزع

رأى مـــــاءً فأطعمـــــه
وخـــاف عواقـــب الطمـــع

وصـــادف خلســـةً فـــدنا
ولم يلتـــــذ بـــــالجرع

ويحكى أن ابن عمه أبا فراس - المقدم ذكره في حرف الحاء - كان يوماً بين يديه في نفر من ندمائه، فقال لهم سيف الدولة: أيكم يجيز قولي، وليس له إلا سيدي، يعني أبا فراس:

لـــك جســـمي تعلـــه
فـــدمي لم تحلـــه

فارتجل أبو فراس وقال:

قـــــال إن كنـــــت مالكـــــاً

فلـــــي الأمـــــر كلـــــه

فاستحسنه وأعطاه ضيعة بأعمال منبج المدينة المعروف تغل ألفي دينار في كل سنة.

ومن شعر سيف الدولة أيضاً قوله:

تجنـــى علـــى الـــذنب والـــذنب ذنبـــه

وعـــاتبني ظلمـــاً وفي شـــقه العتـــب

إذا بـــرم المـــولى بخدمـــة عبـــده

تجنـــى لـــه ذنبـــاً وإن لم يكـــن ذنـــب

وأعـــرض لمـــا صـــار قلـــبي بكفـــه

فهـــلا جفـــاني حـــين كـــان لـــي القلـــب

وأنشدني الفقير أيدمر الصوفي المسمى إبراهيم لنفسه دوبيت في معنى البيت الثالث:

قـــوم نقضـــوا عهودنـــا بالشـــعب

مـــن غـــير جنايـــة ولا مـــن ذنـــب

صـــدوا وتعتبـــوا وقـــد همـــت بهـــم

هـــلا هجـــروا وكـــان قلـــبي قلـــبي

ويحكى أن سيف الدولة كان يوماً بمجلسه والشعراء ينشدونه، فتقدم أعرابي رث الهيئة وأنشد وهو بمدينة حلب:

أنـــت علـــي وهـــذه حلـــب
قـــد نفـــذ الـــزاد وانتهـــى الطلـــب
بهـــذه تفخـــر الـــبلاد وبـــال
أمـــير تزهـــى علـــى الـــورى العـــرب
وعبـــدك الـــدهر قـــد أضـــرَّ بنـــا
إليـــك مـــن جـــور عبـــدك الهـــرب

فقال سيف الدولة: أحسنت والله، وأمر له بمائتي دينار.

وقال أبو القاسم عثمان بن محمد العراقي قاضي عين زربة: حضرت مجلس الأمير سيف الدولة بحلب، وقد وافاه القاضي أبو نصر محمد بن محمد النيسابوري، فطرح من كمه كيساً فارغاً ودرجاً فيه شعر استأذن في إنشاده، فأذن له، فأنشد قصيدة أولها:

حبـــاؤك معتـــادٌ وأمـــرك نافـــذ
وعبـــدك محتـــاج إلى ألـــف درهـــم

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكاً شديداً، وأمر له بألف درهم، فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه.

وكان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم المعروفان بالخالديين الشاعرين المشهورين، وأبو بكر أكبرهما، قد وصلا إلى حضرة سيف الدولة ومدحاه، فأنزلهما وقام بواجب حقهما، وبعث لهما مرة وصيفاً ووصيفة ومع كل واحد منهما بدرة وتخت ثياب من عمل مصر، فقال أحدهما من قصيدة طويلة:

لم يغـــد شـــكرك في الخلائـــق مطلقـــاً
إلا ومالـــــك في النـــــوال حبـــــيس
خولتنـــــا شمســـــاً وبـــــدراً أشـــــرقت
بهمـــــا لـــــدينا الظلمـــــة الحنـــــديس
رشـــأ أتانـــا وهـــو حســـناً يوســـفٌ
وغزالـــــةٌ هـــــي بهجـــــةً بلقـــــيس
هـــــذا ولم تقنـــــع بـــــذاك وهـــــذه
حتـــى بعثـــت المـــال وهـــو نفـــيس
أتـــت الوصـــيفة وهـــي تحمـــل بـــدرة
وأتـــى علـــى ظهـــر الوصـــيف الكـــيس
وحبوتنـــــا ممـــــا أجـــــادت حوكـــــه
مصـــــرٌ وزادت حســـــنه تنـــــيس
فغـــدا لنـــا مـــن جـــودك المـــأكول وال
مشـــــروب والمنكـــــوح والملبـــــوس

فقال له سيف الدولة: أحسنه إلا في لفظة "المنكوح" فليست مما يخاطب الملوك بها.

وأخبار سيف الدولة كثيرة مع الشعراء، خصوصاً مع المتنبي والسـري الرفـاء والنـامي والببغـاء والـوأواء وتلـك الطبقـة، وفي تعدادهم طول.

وكانت ولادته يوم الأحد سابع عشر ذي الحجة سنة ثلاث

وثلثمائة، وقيل: سنة إحدى وثلثمائة. وتوفي يوم الجمعة ثالث ساعة، وقيل: رابع ساعة، لخمس بقين من صفر سنة ست وخمسين وثلثمائة بحلب، ونقل إلى ميافارقين، ودفن في تربة أمه، وهي داخل البلد، وكان مرضه عسر البول.

وكان قد جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً وعمله لبنة بقدر الكف، وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده، فنفذت وصيته في ذلك.

وملك حلب في سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، انتزعها من يد أحمد بن سعيد الكلابي صاحب الإخشيد.

ورأيت في " تاريخ حلب " أن أول من ولي حلب من بني حمدان الحسين بن سعيد، وهو أخو أبي فراس ابن حمدان، وأنه تسلمها في رجب سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وكان شجاعاً موصوفاً، وفيه يقول ابن المنجم:

وإذا رأوه مقبلاً قالوا ألا

إن المنايا تحت راية ذاكا

وتوفي يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة بالموصل، ودفن بالمسجد الذي بناه في الدير الأعلى، وكنت أظن أن دير سعيد الذي بظاهر الموصل منسوب إلى أبيه حتى رأيته في كتاب الديرة منسوباً إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان الأموي.

وكان سيف الدولة قبل ذلك مالك واسط وتلك النواحي، وتقلبت به الأحوال وانتقل إلى الشام وملك دمشق أيضاً وكثيراً من بلاد الشام وبلاد الجزيرة، وغزواته مع الروم مشهورة، وللمتنبي في أكثر الوقائع قصائد، رحمه الله تعالى.

وملك بعده ولده سعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة، وطالت مدته أيضاً في المملكة، ثم عرض له قولنج وأشفى منه على التلف، وفي اليوم الثالث من عافيته واقع جاريته، فلما فرغ منها سقط عنها وقد جف شقه الأيمن، فدخل عليه طبيبه، فأمر ان يسجر عنده الند والعنبر، فأفاق قليلاً، فقال له الطبيب: أرني مجسك، فناوله يده اليسرى، فقال: أريد اليمين، فقال: ما تركت لي اليمين يميناً، وكان قد حلف وغدر.

توفي ليلة الأحد لخمس بقين من شهر رمضان من سنة إحدى وثمانين وثلثمائة وعمره أربعون سنة وستة أشهر وعشرة أيام.

وتولى بعده ولده أبو الفضائل سعد، ولم أقف على تاريخ وفاته، وبموته انقرض ملك بني سيف الدولة.

وتوفي أبو علي ابن الأخوة المذكور يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وخمسمائة، وكان شاعراً مجيداً.

فهرس الكتاب

وفيات الأعيان كما يراه الإمام الندوي	٥
المقدمة	٨
تقديم الكتاب	١٠
تقديم الكتاب	١٥
شكر وتقدير	٢٠
ابن خلكان: حياته وآثاره	٢٣
العلماء الربانيون	
الحسن البصري	٣٩
الغزالي	٤٤
المحدثون والفقهاء	
الإمام أبو حنيفة	٤٩
الإمام أحمد بن حنبل	٦٢
الفقيه أبو إسحاق الشيرازي	٦٥
إمام الحرمين	٦٩
الأستاذ الإسفراييني	٧٣

ابن قرقول	٧٤
ابن الماجشون	٧٦
الأدباء والمؤرخون	
أبو الفضل بن العميد	٧٩
الصاحب بن عباد	٩٤
أبو الطاهر السرقسطي	١٠٠
ياقوت الحموي	١٠١
الشعراء وأصحاب القريض	
أبو تمام	١١٩
البحتري	١٤٠
الملوك والوزراء	
الوزيرنظام الملك	١٥٥
الملك عادل نور الدين	١٥٩
ملك شاه السلجوقي	١٦٦
سيف الدولة بن حمدان	١٧٤
فهرس الكتاب	١٨٢

أعمال أخرى للمحقق

١. صور مشرقة للإسلام (مجموعة محاضرات إمام الحرم المكي الشيخ خالد بن علي الغامدي حفظه الله لدى زيارته لندوة العلماء عام ٢٠١٢م).
٢. النكت التفسيرية للعلامة الشيخ السيد سليمان الندوي.
٣. مفردات القرآن للعلامة السيد سليمان الندوي.
٤. تفسير القرآن الكريم للعلامة السيد سليمان الندوي.
٥. مسئولية العلماء في الأوضاع المتغيرة تعريب لمحاضرة العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي.
٦. خطر للبلاد كبير تعريب لمحاضرة العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي.
٧. الرسالة وحاجة الإنسانية إليها تعريب لكتاب الإمام الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي.
٨. الهداية القرآنية سفينة نجاة للإنسانية تعريب لمؤلف الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي.
٩. جزيرة العرب للشيخ محمد الرابع الحسني الندوي.
١٠. تعريب لكتاب المجتمع الإسلامي في ضوء سورة الحجرات: حدوده وآدابه للشيخ محمد الرابع الحسني الندوي.
١١. الحج وأمكنته للشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي.
١٢. نور التفسير.
١٣. المنتخبات العربية تحقيق وتعليق.
١٤. علماء فرنكي محل البارزون وخدماتهم الدينية.
١٥. العلامة عبد الحي الفرنكي محلي وجهوده العلمية.
١٦. العلامة شبلي النعماني: رائد النهضة التعليمية الحديثة.
١٧. الموجز في أصول التفسير.
١٨. مجموعة من النظم للأستاذ محمد شريف سليم.
١٩. الخطب الدينية المنبرية.
٢٠. أسبوعان في الديار المقدسة.
٢١. سعيد الأعظمي حياته وآثاره.
٢٢. فضائل الأعمال: دراسة علمية.
٢٣. باب الأدب من ديوان الحماسة لأبي تمام.
٢٤. البلاغة الواضحة (القرآنية).
٢٥. المختار من وفيات الأعيان لابن خلكان.
٢٦. متاع الفكر والفن (مجموعة مقالات ودراسات أدبية).